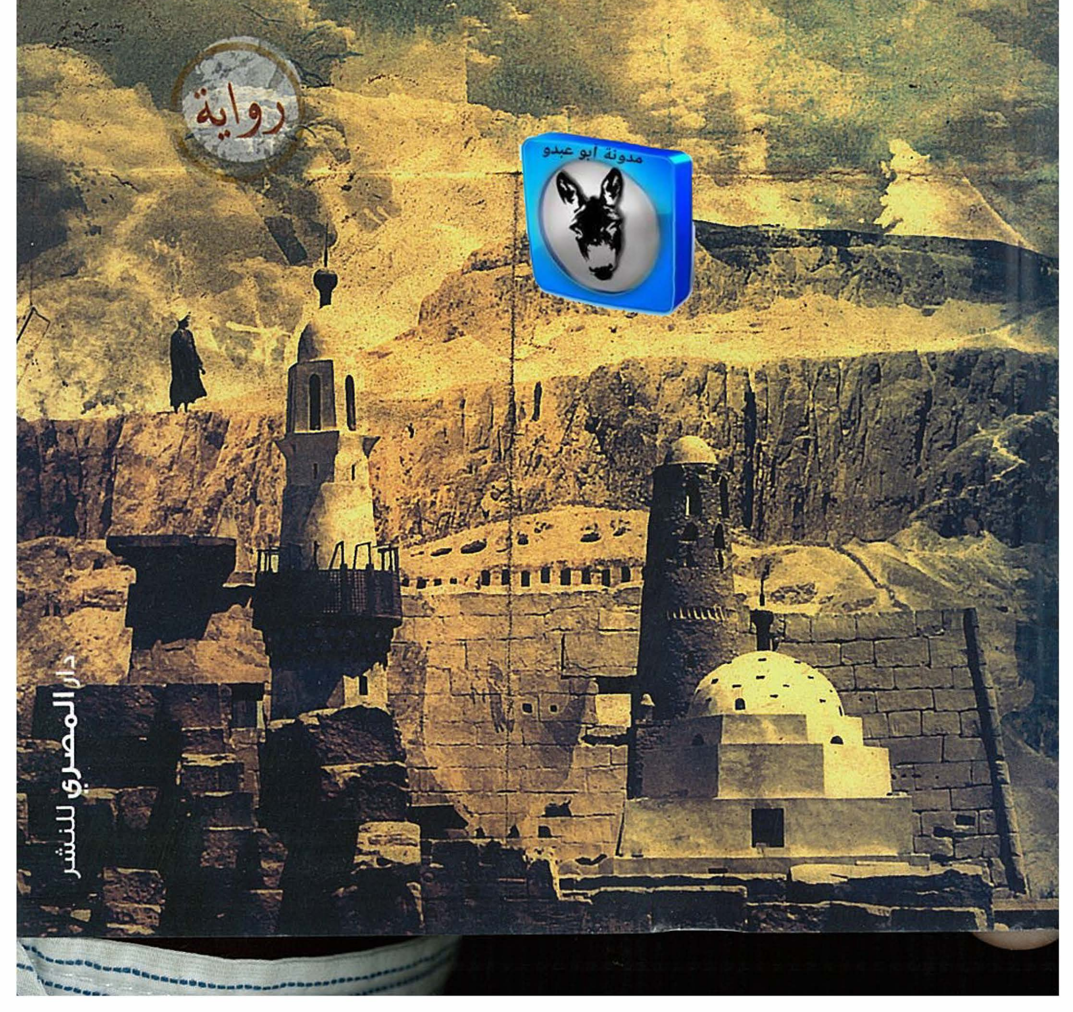
أحمد الصغير

# مدينة لا تضحك

رواية




دار المصري للنشر

# مدينةٌ لا تضحك

# مدينةٌ لا تضحك

رواية

أحمد الصغير

---

الطبعة الأولى ٢٠١١





**دار المصري للنشر والتوزيع**

دار السلام، القاهرة

ت: ٠١٨٢٣٤٣٨٧٩

٠١٤٦٣٣٥٠٩٨

Email: elmasrypublishing@gmail.com

المدير العام: يوسف ناصف

---

المراجعة اللغوية: مجموعة ضمة للتدقيق اللغوي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع: 2010/ 23905

الترقيم الدولي: 8 - 14 - 6378 - 977 - 978

# مدينةٌ لا تضحك

رواية

## أحمد الصغير



# مقدمة

تمامًا كما في حياة الأفراد، فإنّ في حياة البلاد والمدن لحظات فارقةً قد تكون يومًا أو شهرًا أو قد تستغرق أعوامًا. فمن وحي تلك اللّحظات في حياة الأقصر أو طيبة التي كنتُ شاهدًا على بعض تفاصيلها، كانت هذه الرواية التي وإنْ تشابَهت في بعض أحداثها أو أسمائها مع بعض الأحداث والأسماء الحقيقية إلا إنها تظل عملًا أدبيًّا من خيال كاتبها.

أحمد الصغير

# الدردوم ومَرَة العيش... شفرة العار

بمجرد أن أعلنت اللوحةُ الضوئية عن وصولِ الرحلة القادمة من مطار (هيثرو) والتأكد من موظف شركة الطيران حتى قام أحد الموجودين بصالة الانتظار بإبلاغ المنتظرين خارجه فانطلقت الزغاريد المنبعثة من المزمار البلدي... الذي احترفته وتوارثته إحدى عائلات الأقصر، وسُمِّيت الفرقة على اسم مُنشئها الأول. تشابه العازفون في ملبسهم مع باقي المنتظرين، وكلما زادَ حماسُهم انتفخت خدودهم وامتلأت بالهواء، فتدوي الزغاريد بصوت أعلى ويتراقص على أنغامها الصاخبة اثنان من الخيول المزركشة بألوانٍ زاهية، ويمتطيانها بزهو بالغ اثنان من أصدقاء حسَّان اللذين كانا يرافقانه في الصغر. ارتفعت أبواق السيارات لكي تملأ ساحة الانتظار خارج مطار الأقصر بالضجيج. بعض تلك السيارات فارهةٌ وحديثةُ الصنع جدًّا، تبدو وكأن إطاراتها قد لامَسَت الطريق لتوها، والبعض الآخر سيارات أجرة فرنسيةِ الصنع بيجو ذات السبعة مقاعد بيضاء وبخطوطٍ زرقاء. المنتظرون كلهم من الرجال...

بعضهم لم يتجاوز عمره الخامسة عشرة والبعض الآخر تخطى الخمسين من العمر... في انتظار حسَّان القادم من إنجلترا بعد عامين قضاهما في بلاد الصقيع والضباب. لن يصلَ بمفرده وإنما مع زوجته الإنجليزية. الأصدقاء والأهل وأبناء العمومة والجيران من أهل (القُرنة) من غرب الأقصر لم يتغيبوا عن تلك اللحظة التي تكررت كثيرًا في الأعوام المنصرمة لحدٍّ أفقدها تفردها فاعتادها العاملون في مطار الأقصر.

وجوه الفتية الصغار لفحتها الشمس وأحرقت البشرة الخارجية لمعظمهم عند الخدين وساهمت المياه وهواء الشتاء البارد الجاف في حدوث بعض التشققات في أيديهم ووجوههم فبعضهم يقضي النهار بطوله متنقلاً بين وادي الملوك والملكات متسلقًا الجبال لكي يعثرَ على أحد السائحين الذي يشتري منه أحدَ التماثيل الصغيرة أو كتيبًا صغيرًا أو مجموعةً من الصور الأثرية المختلفة... هذا البعض لم يصبر على الورقة والقلم وحَمْلِ الكتب كل يوم والواجبات المدرسية وتأنيب المعلم أو لَسْع جريدة النخلَ على الأصابع في الصباحَ الباكر... قرر أن يعفيَ نفسَهَ من كل هذا فألقى العلمَ وراء ظهره و لم يعترض على ذلك مجتمعٌ يعشق المال... التقطتْ ألسنتُهم بعضَ الكلمات من مختلف اللغات... كلماتٌ موجزةٌ قادرةٌ أنْ ترقَّ معها قلوب بعض الزائرين وتُفتح معها حافظاتهم أو كلماتٌ قاسيةٌ مهينةٌ لا يحتملها البعض الآخر فيتخلص من الموقف بأكمله بالشراء. امتلأتِ ساحات الانتظار أمام المزارات السياحية بهم... كبروا وتفتَّحت مداركُهم على الدولار والجنيه الإسترليني والمارك وأخيرًا اليورو. أقرانُهم في شوارع القاهرة أدمنوا استنشاق روائح وقود السيارات وعوادمها والكولا، وهنا أدمنوا استنشاق رائحة الأوراق النقدية المختلفة والحافظات الجلدية. اعتادوا مطاردةَ رجال شرطة السياحة لهم فاكتسبت

قلوبهم الصغيرة مناعةً خاصةً ضد الخوف منهم، وأَعظَمَ من تلك المناعة التفاهماتُ التي تفرض نفسَها من آنٍ لآخر فيعطون عن غير طيب خاطر بعضًا مما اغتنموه مقابل السماح لهمّ بالبقاء. رأوا بعضًا منهم يشبُّ عن الطَوق فيختال تيهًا بعلامات الذكورة المتفجرة حتى تلتقطهم يدُ امرأة خبيرةٍ من إحدى دول الغرب البارد لتقتطفَ زهرةَ مراهقته الملتهبةَ. يريدوُن الآن أنْ يروا بطلهم القادم لكي يتحسسوا خطواته ويسيروا على دربه... يتعجلون سنوات الصبا أنْ تمرَّ لكي يقفزوا إلى عربة المستقبل التي تقودهم لبداية الطريق الذي اختصروه في امرأة بيضاء قادمة من عالم بعيد تحمل بين يديها مفاتيحَ كنوزِ سليمان... السيّارةَ الفارهةً... المنزلَ الكبير ذا الطوابق المتعددة... المال بمختلف ألوانه ومواطنه وأشكاله... بطاقات الائتمان والأرصدة البنكية... هذه هي معالم الطريق وهذا هو أحدُ أبطالهم القادمين من هناك بعد أن كان منذ عامين فقط هنا بينهم ينتظر الوثبة الكبرى وقد وثبها. عيون الصغار صارت متحلقةً بباب صالة الخروج في انتظار البطل.

أما المنتظرون من الكبار فكان جُلُّهم من غرب الأقصر الذين يمتلكون محلات العاديات ومصانع المرمر أو الألبستر وهو حجرٌ صلبٌ ناعمٌ نظيفٌ ذو ألوانٍ عديدة وجميلة كان يستخدمه السابقون منذ آلاف السنين مع الأحجارِ الأخرى لينحتوا منها تماثيلهم وتوابيتهم وآنياتهم وقد صنعوا منها حضارتهم. انتشرت هذه المصانع في الغرب وتزينت جدرانها الخارجية بالرسومات الفرعونية وحتى الإسلامية وبالألوان الزاهية، واحترف عددٌ من شباب القرنة العملَ في تلك المصانع على خُطى أجدادهم وبذات الطرق التي استخدموها... بمجرد أن تأتي إحدى المجموعات السياحية يهمُّ الصبية بالعمل أمام المصنع قبل أن يدخل

الزائرون إلى الداخل للشراء حيث تبدأ المساومات التي غالبًا ما تنتهي بانتصار ساحق لأهل الدار على ضيوفهم. جاء هؤلاء الكبار إما للمجاملة وإما بدافع الفضول ليروا زوجة حسّان المنتَظرة. يرتدون الجلباب البلدي ذا الأكمام الضيقة عند الكتفين ثم تتسع تدريجيًا عند نهاية اليدين... غلبت عليه الألوان الداكنة وهو من الصوف الذي يقيهم برد الشتاء... ملامح الغلظة الصعيدية غالبة من رؤوس كبيرة الحجم، ووجوه عريضة، وأصوات جشّة، وأجساد متناسقة ناطقة بالفتوة، وعضلات بأرزة تحت الثياب، وكفوف عريضة مفرطحة، وأصابع طويلة قد تكون بقايا علاقة قديمة في الصبا مع الفأس والمحراث والأرض. تحمل الوجوه شواربَ كثة، والرؤوس تُثقلها وتزيد من أحجامها العماماتُ البيضاء التي يطلقون عليها الشاش أو اللاسة. في أحد الجوانب من صالة الانتظار وقف شابٌ يرتدي بذّة صيفية تنطق بالبساطة ورخص الثمن... إنه (طيب) الشقيق الأكبر لحسّان، وقد كان بمفرده في انتظار شقيقه. طيب ذو طول فارع وأسمرُ الوجه وحليقُ الشارب... يلقبه أهل القرنة بالأستاذ طيب ويعمل موظفًا بإحدى المصالح الحكومية بشرق الأقصر. يربط الدم الشقيقين ويفرقهما اختلاف الشيم والطباع، وكأنهما من كوكبين مختلفين ولا يصدق من يجالسهما أنهما من بيتٍ واحدٍ، بل من بطنٍ واحدة.

كان طيب يحاول دائمًا أن يكون الجسر الهادئ الذي يربط الأبَ الشيخ (عزب) المعتز بصعيديته وأخلاق الجنوب وشيمه والمحافظ على التقاليد اعتزازًا يصل إلى حد التصلب أحيانًا، وبين الشقيق الأصغر حسّان مُطلَق اللجام منذ الصغر... الباحث عن شيء مجهول دفعه لترك الدراسة منذ المرحلة الابتدائية والهرولة كل صباح إلى الشرق حيث معبد الكرنك. عرف هناك بعضًا من مُلاك محلات العاديات وعمل معهم

مثل كل أقرانه... يتسلم عددًا من العاديات ويطارد السائحين حتى يملّه أحدهم فيشتري إحداها لكي يتخلصَ من ملاحقته... كان صبورًا ومتفجرًا بالطاقة... يعرف بداخله أن هذه الأيام إنما هي مرحلةٌ في حياته ستتلوها مراحلٍ أخرى... يعود آخر اليوم ويعبر إلى البر الغربي في مَعديّة الأهالي التي تُقله إلى قرية البُعَيرات. كان يكره تلك المعدية ورائحتها ورائحة الطيور ورَوَث البهائم ورائحة الأرض والطين النفاذة التي تفوح من أجساد النساء والرجال. يعود كل مساء متأخرًا متباطئًا قدْر استطاعته حتى يكون أبوه نائمًا فهو لا يقوى على مُواجهته... يهرب من السهام المصوبة إليه من عينيه، وإذا اضطر للمواجهة يحرص أن يكون شقيقه طيب حاضرًا؛ فربما تخف حدة الأب وتعنيفه.

أما أمه (رئيفة) فهي سيدةٌ ريفية لا تعرف من الدنيا سوى أن تستيقظ كل يوم مع صوت المؤذن يصدَح بآذان الفجر... تُصلي وتبدأ يومها الطويلَ، فتحلب البقرة وتجهز الإفطار للشيخ عزب وابنها الأكبر طيب حتى عودتهما من المسجد... يكون هذا الإفطار في العادة قطعًا من الخبز الشمسي المنتفخ وعليه الحليب الطازج الساخن. ولا تنسَى الاطمئنان أن حسَّان قد بات ليلته في فراشه. ينحصر عالمها وصديقاتها في امرأة وفتاة. أما المرأةُ فهي (آمنة) ويلقبها الناس (يامنة) وهي الجارة الأرملةً التي تملك مع ابنها (همام) نصفَ فدانٍ من الأرض الزراعية. وأما الفتاة فهي (مروة) ابنة (طايع) جارهم اللدودِ... لا الشيخ عزب ولا طيب ولا أمه يحبون أباها، ولكنهم اعتبروا مروة منذ صغرها إحدى أفراد الأسرة. مروة متعلمة ولكنها لا تتردد في مساعدة رئيفة في حَمْيِ الفُرن البلدي وتنظيف بقرة الشيخ عزب كل أسبوع.

تقوم رئيفة بالخبيز مرةً كل يومين... عليها إعداد التجهيزات اللازمة في الليلة السابقة من غربلة الدقيق مرةً أو مرتين حسب عمل الطاحونة ثم تجهيز قطعةً من خميرة الخبز في طبقٍ مغطى. بعد صلاة الفجر تقوم بغسل العجّانية وهي إناءٌ كبيرٌ من الفخارِ تسمى أحيانًا الماجور، ثم تبدأ العجن وتقطيع العجين على ما يسمى المقارص وهي قطعٌ مستديرةٌ من الطمي المجفف المخلوط بالتبن والقش. وتضع قليلاً من الدقيق على المقارص حتى لا يلتصق بها العجين. تترك خبزها في شمس الشتاء حتى ينتفخَ قليلًا فتقوم بما يسمى التقريح وهو شق خط دائري حول أرغفة الخبز بالإبرة وذلك حتى يزيد انتفاخ الرغيف. ساعتها تكون مروة قد قامت بحمي الفرن المبني من الطمي والتبن وهو أقسى مراحل الخبيز حيث توقد النار أسفل الفرن بروث الحيوانات المجفف والتبن وما تجده من أوراق الكرتون حتى تصل بطنُ الفرن إلى درجة السخونة اللازمة لاستقبال الأرغفة... ومع الانتهاء من يوم الخبيز تكون مروة قد ذرفت كثيرًا من الدموع. للخبز الطازج رائحةٌ نفاذةٌ تتسرب لكل أنحاء الدار ولا تنسى رئيفة أن تضع أسفل الفرن بعد ذلك قدرَين من الفخار لتدميس الفول والعدس وفي القرنة كما في كل قرى الصعيد يطلق على هذا القدْر (الملز ). كَبُرت مروة والتصقت بهذا المنزل أكثر بعد أن اصطفاها هاتف العشق لتكون الزوجة المنتظرة لطيب. كان يساعدها في دروسها في الثانوية العامة وكثيرًا ما اقشعرَّ جسداهما وانتفضا إذا ما اصطدمت يده بيدها قدرًا في المرات الأولى وعمدًا فيما بعد. عاشت في وطنٍ واحد مشترك مع طيب وأمه وأبيه بينما يعيش أبوها في وطنٍ آخرَ مختلفَ وغريب.. أما أم السعد أمها فقد ارتضت لنفسها منطقةً بيْن الوطنين... دِرْباس يفصل بين حقلين شأنها في ذلك شأن الكثيرات من الزوجات في

الجنوب... وكلما كبرت مروة ازدادت انتماءً لوطنها واغترابًا عن أبيها واعتادت أن تمر الأيام وربما الأسابيع دون أن تراه.

مرت السنوات حتى بلغ حسَّان العشرين من عمره وفاجأ الجميع برغبته في السفر إلى إنجلترا... ساعدته الأقدار حينما تم إعفاؤه من التجنيد. السرعةُ التي أنهى بها أوراق سفره كشفت لأهله أنه لم يكن بمفرده وإنما هناك أحدٌ ما من القرنة قد ساعده وهناك أحدٌ آخر في إنجلترا ذاهبٌ إليه أو إليها. لم تَطل حيرة الأب... فقد هاتفهم وأخبرهم بزواجه من تلك الإنجليزية ومكث هناك عامين حتى فاجأهم للمرة الثانية بموعد عودته معها. وكان قرار الشيخ عزب واضحًا حاسمًا...

-"إنْ عاد بمفرده فأهلًا به، أمَّا إن عاد معها فلن يدخل أيٌّ منهما داري"

حضر الجميع لاستقبال حسَّان وغاب الأب بل وأعلم ابنه الأكبر أنَّ أخاه لن يدخل الدار مع تلك الزوجة. لم يستطع طيب أن يمنع نفسه من الحضور فقد اشتاق لأخيه وتمرداته وانفلاته أحيانًا... أقنع نفسه أن أخاه لابد وأن يهدأ يومًا ما حين يجتاح قلبَه الحبُّ الطاهر والحبيبة التي تستطيع أن تحتوي جنوحَه وجنونَه. لم يفقد الأمل في عودة أخيه لأصله الطيب فهو نَبتَةُ رجلٍ صالحٍ وامرأة طيبة... حاول أن يستوعب غضبَ أبيه فألزمَ نفسَه بالوفاء بقَسَمِه ولكنهُ حمل في نفسه عبءَ إقناعه فيما بعد أن يتقبل حسَّان ويحتويه حتى يتخلصَ من اضطراب نفسه بدلًا من تركه فريسةً لهذا الاضطراب.

فُتحت أخيرًا صالة الوصول وبين أفواج السائحين ظهر حسَّان... تغير كثيرًا... بدا وجهه وشعره الأسود الناعم كأحد القادمين من إحدى

دول جنوب شرق آسيا... برزت قامته الطويلة وكتفاه العريضتان. تغير ملبسه فهو يرتدي قميصًا أقربَ أن يكون نسائيًّا حريريًّا ناعمًا وقد فتح أزراره العلوية وأخرج شعر صدره الأسود وطوّقت رقبته سلسلةٌ ذهبية ثقيلة كالجنزير وطوقت ذراعه زوجته الإنجليزية التي كان مجرد خروجها من الباب كافيًا لإثارة سخرية الجميع؛ فهي غريبة الشكل والجسد. شعرها أسودٌ لامعٌ يتناقض سواده بشدة مع تجاعيد وجهها وشحوبه الذي يفضح شيخوخةً ظاهرةً... نحيفةٌ بشكلٍ لافت... ساقاها مقوستان قليلًا، ذكوريتان في شكلهما وآثار شعرٍ كثيفٍ تمّ نزعه قريبًا واضحةٌ على بشرة الساقين... العروق والشرايين النافرة ترسم خرائطَ عديدةً على الذراعين العاريتين والكفين. عينان صغيرتان غائرتان زائغتان مضطربتان تتلفتان في بلاهة في وجوه الحاضرين. جسدٌ فقد حيوية الحياة منذ زمنٍ بعيد بفعل ما انقضى من سنين العمر... ودماءٌ تجمدت بفعل ثلوج وصقيع إنجلترا... جسدٌ آت من عالم ميت جاء إلى الأقصر يشتري بماله وجواز سفره دفءَ الشمسِ الشتوية ورحيقَ شاب مازال يخطو خطواته الأولى في الحياة. تزاوجٌ بين الموت والحياة أو بالأحرى صفقةٌ بين الموت والحياة تمت مساوماتها الأولى منذ عامين حين كان اللقاء العابر أمام معبد الكرنك... التقت العيون واتفقت على كل شيء حتى بدون أن تلفظ الشفاة الكلمات. الموت يملك تأشيرة الدخول إلى بلاد الضباب ومعها المال اللازم لاختصار خطوات الحياة الطبيعية من الكد والكفاح في وثبة واحدة، بينما تملك الحياة الصبا والفتوةَ واللذةَ ومعهم تملك الرغبة في البيع والتمتع بأن تكون سلعةً تُباع لأعلى ثمن. وها قد جاء هذا الثمن والمشتري المنتَظر. تم الاتفاق بعد لقاء في غرفة أحد الأصدقاء وارتضى الطرفان بنود الصفقة... السفر والمال بلا آخر مقابل المتعة التي لن يستطيعَ الزواجُ أن يجعلها متعةً مشروعة أبدًا لسببٍ آخر يخص العروس.

اسمها (إلين) كما أخبرهم حسَّان في مهاتفاته الأخيرة. انقبض صدر طيب عندما رأى أخاه وزوجته وشعر بوخزة في جسده لم يعرف لها سببًا في وقتها، ولكنه قاوم ذلك الشعور وتقدمَ لعناق حسَّان ثم ما لبث أنْ تراجعَ عندما لفحت أنفَه رائحةُ الخمور النفاذة التي تنبعث من فم أخيه وزوجته. في لحظات وجد طيب نفسه بعيدًا عن تلك الدائرة من الأصدقاء وأبناء العمومةً التي أحاطت بحسَّان وزوجته... الكل يرغب في اصطحابه للبلدة ولكنه شكرهم وفضًل الذهاب مع صديقه القديم الذي يكبره بأكثر من عقدين من الزمان، ولكنه كان دائمًا مأخوذًا به منبهرًا بأسلوب حياته... طايع الذي تخطى الخامسة والأربعين من عمره وهو جارٌ لحسَّان ويمتلك عددًا لا بأس به من محلات العاديات في أنحاء الأقصر ومصنعًا للألبستر في الغرب وقطعة أرض زراعية لا تطأها قدماه إلا فيما ندر وابنته الوحيدة مروة أنهت دراستها الجامعية منذ سنواتٍ قليلة و لم تعمل أو تتزوج بعد.

***

- "حمدا لله على سلامتك يا بطل."

- "ما أخبارك يا عم طايع ؟"

- "تمام وسوف نسهر الليلة سويًا في المصنع كما كنا نفعل قبل سفرك، الأولاد سيحضرون لنا بيرةً وبانجو وسنسهر للصباح."

- "ليس اليوم فنحن كما ترى نحتاج للنوم... هل أعددت لنا مكانًا للإقامة؟ فأبي رفض أن نقيم معه بالمنزل."

- "حجزت لكما في فندق أحد الأصدقاء بالغرب مؤقتًا حتى نشترى لك بيتًا."

- "إذن نذهب للفندق مباشرةً وأعدك أن نلتقي غدًا مساءً، ويمكن أن تسهر معنا زوجتي ولكنها تفضل الحشيش."

- "كله موجود يا صديقي."

قال له ذلك ثم ربت على كتفه وركبوا السيارة ثم انطلقوا تجاه الأقصر التي لا تبعد كثيرًا عن المطار... بناءً على رغبة حسَّان فقد اتجهت السيارة إلى داخل مدينة الأقصر وساروا في شوارعها قبل أن يتوجهوا للكبري جنوب المدينة. كانت بعض شوارع المدينة مغلقة وأعمال الهدم تسير على قدم وساق كجزء من خطة تطوير المدينة التي بدأت منذ سنواتٍ قليلة وأخذ طايع يجيبُ تساؤلات صديقه.

- "نعم، فهم يسابقون الزمن لتنفيذ خطتهم. لا يمر يومٌ دون هدْم أحد المباني أو أجزاءٍ منها."

- "وماذا عن السكان؟"

- "يتم تسكينهم في أماكنٍ أخرى بديلة، إما على أطراف المدينة أو في طيبة الجديدة... إنَّ الأقصرَ اليوم يا حسَّان تسبح في بحر من الأموال وفرصة العمر متاحةٌ للأذكياء... بعد أن تأخذ وقتك من الراحة سوف أحدثك عن أفكاري التي يمكن أن ننفذها معًا."

- "أتذكَّر أن هنا كانت تقع عماراتٌ سكنيةٌ ومسجد؟"

- "تم هدمهم لوقوعهم في طريق الكِباش بين معبدي الكَرْنَك والأقصر."

مَرَقت السيارة ببعض الشوارع قبل أن تنطلق خارج المدينة التي بدأت تتوهَّج بفعل الأضواء الكثيفة في الشوارع والمحلات وحول الأشجار وحول مداخل الفنادق.

-"أظنك تعلم أيضًا أن بعض مصانع الحجر تم نقلها خارج القُرنة ورحَّلوا عائلاتٍ كثيرة من المنطقة الأثرية إلى الجنوب."

- "نعم، أخبرني طيب بذلك."

بينما تقترب السيارة من كوبري الأقصر امتدت يدُ حسَّان لتفتحَ زجاج السيارة في حركةٍ لا إرادية حتى تمتلئ السيارة بالهواء البارد المختلط برائحة الحقول... تلك الرائحة الريفية التي تختلط فيها رائحة البشر برائحة الطين وحيوانات الغيطان والتي كان يكرهها حسَّان منذ الصغر ويعتبرها نوعًا من القذارة كما كانت تعاف نفسه أشياءً أخرى كثيرة... وجد نفسَه اليوم يبحث عنها ويشتاق إليها. لقد حُرم منها عامين متتالين، والآن يجدُ أنفَه جائعةً شرهةً لاستنشاقها وصدرَه متحفزًا لاحتواء المزيد منها. أراح رأسه على مقعد السيارة وأغمض عينيه بينما أخذت أنفه تعبُّ من هذا الهواء. ولم يفيقه من هذا الخدر سوى ذلك الجسدُ الملقى بجواره... جسدُ زوجته الإنجليزية التي كانت تَغط في نوم عميق منذ أن انطلقت السيارة من المطار. صوت الشخير المتقطع المنبعثُ من أنفها يتصاعد فجأةً فيثير انتباه طايع الذي ينظر إليها في المرآة... يبتسم في تعجبٍ ولكنه لا يعلق. ذلك الصوت الكريه يزعج حسَّان ويأخذه من نفسه ويعيده إلى واقعه الذي اختاره والذي سيتعين عليه أن يواجهه ويواجه معه ومن أجله أباه وأخاه وأمه وغيرهم كثيرين. يتسلل بعضٌ من الطمأنينة الكاذبة إلى نفسه أنَّ أصدقاءً مثل طايع سيكونون دائمًا بجانبه.

-"ماذا عن مروة؟ هل تزوَّجَت؟"

- "لا لم تتزوَّج... لم أجدْ بعد مَن يستحق أنْ أعطيَه مالي وابنتي."

يعلم حسَّان أنّ أخاه طيب يهوى الفتاةَ مُنذُ أنْ كانت صغيرة، ولكنَّه لا يعلم إنْ كان قد طلبها للزواج أم لا. كان على السيارة أن تتجه غربًا وسط الحقول قبل أن تنحرف مرة أخرى للشمال في طريقٍ موازٍ لترعة الري. وهنا لم يتغير شيءٌ... ففي الشتاء يبدأ البسطاء ليلَهم مبكّرًا فتُغلق الأبواب ويُسمع من خلف النوافذ أصوات أجهزة التلفاز... تلتف حوله النساء خاصةً إذا ما كان هناك مسلسل صعيديٌّ فتربط أحداثُه بين كل المنازل والأسَر... في الصباح في سِهراية شمس الشتاء الدافئة تتناقش النساء في أحداث المسلسل ويصبحنَ ناقدات إذا لم تعجبهن لهجةُ الأبطال أو إذا لاحظنَ أن ملابسِ البطلة لم تُلطخْها آثارُ مخلفات الحيوانات أو السوادُ الذي تخلفه أدخنةُ الفرن البلدي.

بعضُ الشباب الذين يعملون بالحقول يتجمعون أمام بعض المنازل ويحرقون الأحطاب المقطوعة من أشجار الأثل للتدفئة وعمل الشاي وتدخين المعسل. يلعبون الدومينو ويستمعون لصوت الشيخ ياسين التهامي المدَّاح الصوفيِّ الأشهر. مازالت أقدام هؤلاء وأرجلهم تخوضِ في طين الأرضَ وتكثر بها التشققات التي كونتها المياه كما خلقت طبقةً أخرى سميكةَ أسفل الأقدام لا تتأثر ببرودة المياه أو أشواك أشجار القَرَضِ المتناثرة في الغيطان... تفلطحت أكفهم وانتحرت الطبقاتُ الرقيقةُ منها بفعلِ عناق الفأس والمحراث والمنجلِ. هؤلاء لم تغتلْ خشونَتهم بعد نعومةُ أغطية الفنادق الفخمة أو أحَضانُ عجائز الغرب... ولم تُثبُط عزائمُهم بعد فيخرّوا صاغرين أمام كأس خمرٍ أو سيجارةٍ محشوةٍ بالبانجو

والحشيش، أو حتى أمام حفنة من الدولارات واليوروهات. مازالت الدماءُ الجنوبية فائرةً في عروقهم فيتأثروا ويغضبوا إذا ما حادَثهم إمامُ المسجد عن القُدس ثم يرقُّوا وتلهجَ ألسنتهم بالصلاة على النبيِّ (ص) إذا ما ذُكر اسمُه أمامهم. يتجمعون حول التلفاز ساعة العصاري ليشاهدوا مباراةً لكرة القدم لفرَقهم المفضلة ويتشاحنون إذا لم تَرُقْ لهم إحدى قرارات الحكام... يصَلُّون صلاة القيام في رمضان ويستمتعون بالبرامج الفكاهية ويتسحَّرون مع عائلاتهم بالفول والجبن الأبيض والزبادي ثم يرتدون جلابيب بيضاءَ جديدةً لصلاة العيد... بعدها يقضون صباح العيد في التزاور ونَثر العيدية على الصغار. هؤلاء وإنْ اكتفى معظمهم من التعليم بمراحله الأساسية إلا أنهم قانعون بما لديهم، وجل اهتمامهم أن يصحَّ محصول العام من قصب السكر فيتخلصوا من ديون مصنع السكر، ويجهزوا الأخت العروس أو يتزوج الأخ الأكبر. يتجمَّعون في مركز الشباب... يحضرون مولد سيدي أبي الحجاج بالأقصر ويشترون الحلوى في المَولد النبويِّ كالأطفال.

بينما يتابع حسَّان الشارعَ الضيق الهادئ بين الترعة من ناحية والمنازلِ القروية ذات الطابق الأوحد أو متعدد الطوابق من ناحيةٍ أخرى، إذا به يلمَحُ والده مغادرًا المسجد بعد صلاة العشاء وبعد أنَ قضى بعض الوقت أمام المسجد كما اعتادَ منذ سنوات حيث يتجمع مع الشيخ عزب أصدقاؤه ممن هم في عمر الحكمة والوقار يتناقشون في أمور القرنة وشؤون الدنيا، وقد ينضم إليهم بعض الشباب الذين ينصتون ولا يتحدثون فيسمعون بعضَ القَصص الديني أحيانًا وأحيانًا أخرى بعض ذكريات الماضي للقاصِّين. ولأنهم جميعًا يُجلُّون الشيخ عزب ويحترمون صرامته وموقفه من ابنه العائد فقد آثروا عدم الحديث

عن حسَّان. أبطأ طايع من سرعته والتفتَ ناحية حسَّان علَّه يريد التوقف ليرى أباه ويصافحه ولكنه أشار له بالاستمرار في السير.

-"لا ليس الآن يا عم طايع... دعنا نكمل طريقنا."

مَرَقَت السيارة بجانب الشيخ عزب و لم يلحظ أن ابنه بداخلها واستكمل خطواته ناحية داره.

-"أريد أن أخبرك شيئًا ما لا أستطيع كتمانه عنك حتى تساعدني."

-"هات ما في بطنك ياحسَّان... أنا لا أريد لك إلا الخير."

-"إن هذه الملقاة بجانبي ليست زوجةً عادية."

بدون انتباهٍ حقيقيٍّ، يبتسم طايع ويومئ برأسه لحسَّان أنه يعرف ماذا يقصد

-"بالطبع يا حسَّان ليست زوجةً ولكنها مَرَة عيش."

-"لا ليست مرةَ عيشٍ ولا عيّاشةً ولا حتى امرأة بالمرة!"

وهنا توقف طايع بالسيارة فجأةً محدثًا صوتًا عاليًا، ربما يكون قد أيقظ النائمين في المنازل المجاورة وأيقظ الجسدَ الساكنَ بجوار حسَّان.

-"هل تقصد... ؟"

-"نعم هذا ما أقصده... هذه ليست (إلين) كما أخبرتكم، بل هذا (آلان)... دردوم! لم يكن ممكنًا أنْ أخبرَ أبي أو طيب بهذا... وأمام إصراره على العودة للأقصر هذا الشتاء فقد أخبرته عما يمكن أن يحدث إذا ما عرفت عائلتي الحقيقة واتفقنا أن يصبح (إلين) وهو من اختار

هذه الباروكة وأفهمته كيف يتصرف مع أهلي إنْ حدث يومًا والتقى أحدهم!

-"لماذا يا حسَّان؟ هل فقدت عقلك؟ الأقصر تعجُّ بالحريم من كل الأعمار والبلاد وبعضهن ينتفخنَ بالأموال وسيمُتنَ ليستنشقنَ رائحةَ شابٍ صغيرٍ مثلك... فلماذا؟"

-"كان أولَ صيد لي ويمتلك مالًا لو أشعلتَ فيه النار لما فرغتْ منه في ليلة كاملة... يريدُ أن يقيم بالأقصر... اتفقت معه أن أشتريَ أراضٍ وعدةَ محلات سوبر ماركت وأنشئ شركة نقل ليموزين خاصة وغيرهَا من المشروعات... لم أقابل امرأةً كانت قادرةً أن تفعل لي ذلك... وهذا هو الأمر الواقع وأريدك أن تساندَني وتشاركني وتكتم السِّر."

-"مرةٌ عيش، أو دردوم... لا يهم يا حسان. المهم ما ستفعله أيٌّ منهما لك. لا تُخبرَ أحدًا وغدًا كما اتفقنا سنسهر في المصنع ويمكن أن نتحدث عن خططنا... لا تنسَ أن تحضر معك هذا الدردوم!"

قال طايع جملته الأخيرة ثم انتابته حالةٌ من الضَحك الهستيري ما لبثت أنْ انتقلت إلى كلٍ من حسَّان وآلان الذي كان يتابع حوارَهما ونظرات طايع الفضولية السَاخرة له، التي علم منها أن طايع صديقٌ مقرّبٌ لحسَّان وأنه لا بد وقد أخبره عن التفاصيل التي قد أخفياها عن أهل القرنة منذ وصولهما للمطار.

***

مَرَة العيش... العَيَّاشة... الدردوم... تلك هي الشفرةُ الخاصةُ التي يعرف أسرارها وحكاياتها كلُّ مَن اقترب من خطوط التماس في العلاقة بين السائحين وأهل القرنة. قرنان من الزمان منذ أن بدأ أغنياء أوروبا ومغامروها في القدوم إلى الأقصر بحثًا عن الشمس وعن أسرار الحضارة الغامضة وأطلالها التي كانت إمّا مطمورةً تحت أكوام من الرمال، أو نائمةً تحت أساسات بعض المباني الحديثة أو بعيدةً هناك فيِّ الجبل الغربي الذي يخيف بهيبته وجلاله كل من يقترب منه حتى أن أهل الغرب أطلقوا عليه في لحظة ما جبل المساخيط قاصدين بذلك أولئك النائمين في مقابرهم منذ آلافَ السنين... ملوكًا وأمراءً وأفرادًا عاديين. جاء لوردات أوروبا وأميراتهم واصطدموا بنظرات الغموض والخوف والغضب التي نطقت بها عيون الأهالي. ثم ما لبثت تلك العيون أن هدأت وزاد من هدوئها واطمئنانها الهدايا وقطعُ النقود والحافظاتُ المنتفخة. كان الأهالي دائما حاضرين مواكب الوداع حينما كانت تتم عملية سرقة أو شحن قطعة من ماضيهم إلى أوروبا على ظهر أحد المراكب من الأقصر إلى القاهرة ومنها إلى أحد الموانئ ثم إلى مقرها الأخير بأحد المتاحف أو تصبح من ممتلكات إحدى العائلات الغنية بإحدى دول أوروبا ويمكن أن تكون تلك القطعةُ إما مسلةً أو تمثالاً أو حتى جسدَ أحد ملوك أو نبلاء العصر السحيق. اكتفى أهل القرنة زمنًا طويلًا بدور المُشاهد المتوجِّس والمراقبِ الذي يدفعه الفضول ثم ضاقوا بهذا الدور وقرروا أن يكونوا شركاءً فيما يحدث... عرفوا ما يطلبه زائروهم فانطلقوا يبحثون عنه تحت الرمال وتحت منازلهم الفقيرة وبين صخور الجبل الذي كانوا يهابونه بالأمس. حفروا الخنادق والآبار العميقة وتجسَّد تحقيقُ حلمهم في أسرة عبد النبي الذي ساقه القدر مع إخوته ليكتشفوا كنزًا ثمينًا مثلما يحدث في الأساطير... كنزًا يحوي أجسادَ أعظم الملوك محنطةً وصامدةً لقرونٍ طويلة، وتحيطها قطعُ الذهب

والأحجار الثمينةِ. ظلوا يعبُّون من هذا الكنز سنوات حتى استوحَشت نفوسهم وأراد كلّ منهم أن يخلِّصَ الكنزُ له، وحده فانكشف مستورُهم وخرج الكنز الثمين بعظمته للعالم ليقفَ أمامه مشدوهًا مبهورًا واستلهم أهلُ القرنة من سيرة أفراد تلك الأسرة الطريقَ بعدهم. تمرُّ العقود ويصبح منهم الخبراء في البحث عن المزيد من الكنوز والمزيد من المريدين من كل الدنيا. أصبحت تجارةً في التاريخ وأصبح بعضُ فقراء الغرب أباطرةً يملكون العمائرَ الشاهقة والحوانيتَ السياحية والفنادقَ في شرق الأقصر... وكان لابد للأباطرة من حُماة يملكون المفاتيحَ السحرية للمرور بلا توقيف، ويستطيعون المفاوضاتِ مع عملاء الخارج... أخطبوطٌ تضخم في عقود وتمدَّد جسدُه شمالًا حتى الدلتا والإسكندرية، ففي الأقصر يتحدثونَ عن عَمرو وعن زيد الذي يكفي ذكرُ اسم أحدهما حتى تُفتحَ الأبواب المغلقة وتصبح شفرةُ الكل هي دعه يعبرْ دعَه يمرْ. ومع كل ذلك فقد بقيَ الأمرُ في إطار السعي غير المشروع للثراء السريع واحتفظت الدماء في العروق بفورانها واحتفظت الشخصية بنخوتها وبقيت القرنة وغرب الأقصر منطقةً تنبض بالحياة في الجسد الصعيدي عدة عقود من الزمان. ومع زيادة ثروات البعض منهم إلا أنهم أبقوا على البيوت المتهالكة في الغرب... فهناك الأسرارُ والخزائنُ الحقيقية، وهناك مصانعُ الحجر حيث الأبناء يعلمون العالم طرق أجدادهم في قَهر الأحجار وتطويعها لأزاميلهم لتُصنعَ منها التماثيل والآنية. وهناك أيضًا خُلقت السوقُ الأخرى الجديدة... سوقُ النخاسة في شكلها العصري الذي يتواكب مع الألفية الثالثة ومع التقاء الحضارات. امتدت تلك السوق إلى كل ركنٍ في الأقصر تخطو فيه أقدامُ الزائرات الأوروبيات حيث تأتي عجائز أوروبا والشمطاوات الإنجليزيات بعد أن تتيبَّسَ جلودُهن وتتساقط شعورهن ويقهر البردُ القارس مفاصلَ العظام المتهالكة، وقبل أن تتوقف الحياة تمامًا

في أجسادهن - يأتين إلى الأقصر لشراء صبيٍّ أسمر فتيٍّ علّه يستطيع أن يبعثهن من جديد فيغتصبنَ حيويته ويمتصصنَ رحيقَ صباه... ويقوم أحد سماسرة القانون بكتابة عقد الرّق الذي يكون ساريًا حتى يتهاوى الجوادُ فتبحثَ الواحدة منهن عن جوادٍ آخر.

منذ العشرينيات من عمره قد تقلّب طايع بين العشرات منهن. اغترارُه بنفسه وتباهيه بجسده وفتوته وحسنِ قسمات وجهه... كل ذلك جعله أسعدَ حظًا من أقرانه فلم يجدْ حاجةً لتوقيع عقد إذعان مع واحدة فقط، بل أيضًا وأعطاه الفرص ليختار فلم يكنْ يقبلِ أن تكبُرَه إحداهُنّ بأكثر من عشرينِ عامًا، واعتبر أصدقاؤه ذلك تفردًا لصديقهم و لم يحاولوا تقليده! إنّ قدومَ بعضِ السيارات الفارهة وهبوطَ بعض الطائرات الخاصة إلى الأقصر لحمل أحد الكنوز وامتلاء مقاهي الأقصر بالفتية الصغار يتأبطون أذرع العجائز كان من الأمور المعتادة في الأقصر حتى سنوات قليلة مضت حين شطّ نَفَرٌ من الشباب وقرروا أن يبيعوا كل شيء مثل الكبار ولم يجدوا غضاضةً في بيع أجسادهم لمن يدفع أكثر، امرأةً كانت أو رجلًا، وابتدعوا تلك الكلمة الشفرة... الدردوم ليطلقوها على الذكور من المشترين. بدأت الكلمة تُستخدم بين هذا النفر دون البوح بها وبمعناها في العَلن وحين تخطّى الشطط كل حدٍّ قرروا نَسف آخر تابوهات (محرّمات) المجتمع الجنوبيّ الأخلاقية فبدأت الكلمة في الانتشار على استحياء ثم نَفضَتْ عنها ورقة التوتِ الأخيرة وانقبضَتْ صدور أهل القرنة حينَ أفاقوا يومًا على افتتاح محل تجاريٍّ ضخم يملكه أحد الفتية الصغار وبجانبه دردومه أو زوجته الرجل، وبعده آخر ثم آخر وآخرهم كان حسان... ابن الشيخ عزب وكل من في القرنة يعرف قدْرَ الرجل... فهو أحد الكبار في جلسات الصلح العرفية التي ما

زال لها في الجنوب من القوة ما يفوق القانون المكتوب... وهو التقيّ الورِعُ والخطيب المفوّه الذي كثيرًا ما يعتلي المنبر في صلاة الجمعة إذا ما تغيَّب إمام وزارة الأوقاف... ويفرح المصلون إذا ما كان هو الإمام؛ فهو ذو صوت جهوريٍّ عذب، ويختار مواضيع وعظة مما يهمُّ الناس في حياتهم، وإن كان يشتد عليهم أحيانًا. يهاب حسَّان أباه و لم يكن يجرؤ على ما فعل علانيةً فاتفق مع مَن اشتراه أن يتزيَّن كالنساء ويعيش بين الجميع كامرأة و لم يكن ذلك بالشيء العسير عليه. طايع هو الوحيد الذي أسرّ إليه حسَّان بالحقيقة و لم يكن ذلك عن ثقة به بقدر معرفته أنهما متشابهان في الاندفاع وعشق المال والإيمان بالدنيا كثيرًا وتقديس المصلحة المادية وتقديمها على ما عداها، كما أن ما كان يفكر فيه قد يربط مصيرهما معًا في المستقبل.

# المال والعشق

امتزجَ صراخ طفلٍ أفزعه الظلامُ المفاجئ بالنباح الأخير لكلبٍ قتلته إحدى السيارات المارقة في غرب الأقصر. ليلةٌ اختارها متخصصون في اختيار الليالي الشبيهة... ظلامٌ دامسٌ لم تستطع قهرَه آلافُ النجوم التي ازدانت بها السماء، وإنما أضافت مع مثيلاتها الصفراء على أكتاف بعض الرجال جلالًا ورهبةً للحدث الأعظم... قُطِعَ التيار الكهربائي عن الغرب بأكمله... مع الهدوء الموحش الذي يلفُّ المنازل و الحقول. يهدأ الطفل المفزوع بعد أن أوقدت لهُ أمه بقايا إحدى الشموع القديمة ورأى ظلّه يتمايل مع تهادي فتيل الشمعة فانشغلت عينه بما يرى وخَفَتَ صوته... صمتَ الكلبُ المقتول بعد الحشرجة الأخيرة وفرَّ قاتلُه حانقًا على القتيل انتحارَه على مقدمة سيارته الفارهة الجديدة. بعضُ الصبية والشباب الذين كانوا يشاهدون التلفاز خرجوا أمام دُورهم الطينية وهمُّوا بإشعال قطع أشجار السّنط للتدفئة وعمل الشاي ورصِّ المعسل... بدأ سُعال بعضهم بعد أن استنشقوا الدخان ودمعت أعينهم ولكن السخونة

المنبعثة من النار أغرتهم بالالتصاق بها أكثر وأغرت أعينَهم بمزيد من الدمع وحناجرَهم بمزيد من السعال. وهناك عند سفح الجبل الغَربيِّ وبين البيوت القديمة القابعة فوق عظام الأجداد كان كل شيء معدًا... التاريخ المشنوق استسلم للتجهيز والتقطيع والتكفين بأوراق البنكنوت الخضراء... الأشباح السوداء تتمدد في مداخل ومخارج الغرب. الطفل الذي هدأ قليلًا ما يلبثُ أن يرتجف فزعًا عندما هدرت أمام منزله فجأة محركات السيارات السوداء... الكلبُ المقتول استحال أشلاءً... أزيزُ طائرة عمودية يمزق صمتَ الظلام... صرخات الموت التي يصدرها التاريخُ المذبوحُ المستغيثُ ترتطم بالجبل الغربي الذي يحتضن مقابر المساخيط وترتد لتخرق آذان الخائفين النائمين في منازلهم. الديناصوراتُ المنتفخةُ الكروش والمَجرَّفة العقول ستقوم بالفعل الذي قامت به آلاف المرات حين كانت تخطف في كل مرة قطعةً من هذا الجسد المستباح. خرجت الديناصورات والخراتيت مترهِّلَةُ الأجساد من الأشباح السوداء وأحاطت بجثمان التاريخ المسجى علي المذبح، بينما تدلت من الفَراشة الضخمة المحلقة فوق الرؤوس حبالٌ تم ربْطها بإحكام حول الغنيمة... ثم حلقت الفَراشة العمودية آخذةً معها ما استطاعتْ وتاركةً ما تبقَّى للأشباح السوداء التي انطلقت تنهب الطريق الغربي الصحراوي متجهةً للشمال إلى نقطة الالتقاء المحددة سلفًا. تمَّ كل شيء وغضَّ الجميع البصر، مَنْ علم ومَنْ لم يعلم. أعيد التيار الكهربائي ليفضَحَ ضوءُه الجميع... الجالسين خارج منازلهم يشربون الشاي ويتصنعون ضعفَ السمع وعدمَ الإبصار ليلًا... والعائدين بسياراتهم من النقطة صفر بعد أن راقبوا وأمَّنوا وحصَّنوا أنفسهم من ليلِ الشتاء بدفء الثمن.. والخوارج الذين تعذَّروا عن خوض المعركة خوفًا من البرد... ورضوانَ الذي ترك باب الجنة مفتوحًا على مصراعيه وغطَّ في نومٍ عميق. أعيدت الأنوار فسكنَ

صوت الطفل وعاد الجالسون أمام المنازل ليكملوا ما انقطع منهم في التلفاز ويستكملوا أكواب الشاي بالداخل.

***

واست... القوةُ والصولجان كان هذا اسم الأقصر في العصور الفرعونيَة السحيقة. كانت واست عاصمة مصر حين كانت مصر عاصمة الكون. منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام قدّمت واست شرعيَّتها لقيادة الكون حين طهَّر حكامُها أرضَ الكنانة مِّن غزو الهكسوس الآسيويين ثم قرروا أن يُمدوا سُلطان دولتهم خارِج مصر شرقًا في آسيا وجنوبًا في النوبة ليضمنوا حدودًا آمنة... وانطلقت تلك المدينة في جنوب مصر لقيادة العالم فأصبحت عاصمة العلم والعمارة والطب والفلك والبناء والتشريح والرياضة. قصدَ مدارسَها القاصدون من كل أنحاء العالم. خمسةُ قرون هي عمر العظمة الحضارية للأقصر... ففي الشرق كانت عاصمة الحكمَ والدولة وفي الغرب بحث ملوكُها عن الخلود الأبديِّ فنحتوا في جبالها مقابرَهم وزيَّنوها وأتخموها بالكنوز والمؤن الكافية للحياة الخالدة. ثم فقدت بريقَها شيئًا فشيئًا وطمع فيها الطامعون وغطَّت في نوم عميق كما رقد عظماؤها في سكينة أبدية في الغرب. وحين غزا اليونانيوّن مصرَ أطلقوا على مُدنها أسماءً يونَانية وَأصبحت واست هي (طيبَة) والتصق هذا الاسم بها زَمَنًا طويلًا. ثم دخلها العرب حينَ انتشرت قَبائلهم في كل مصر... بهرهم ما ظهر من مبانيها القديمة من معابد وأساطينَ ومسلات وتماثيل فأسموها مدينة القُصور؛ ظنًّا منهم أن تلكَ المعابد كانت قصورًا لحكامِّها السابقين... جاء معهم بعض أقطاب الصوفيَّة وعلى رأسهم القُطب العظيم أبو الحجاج الذي بنى مُريدوه مسجدًا حول ضريحه

وأصبح المسجد ككل مساجد الصوفية قبلةً للدراويش والعاشقين والمتدلهين. حَجَبت الرمالُ والبنايات الحديثة أطلال الراحلين القدماء كما دُفنت مقابرُهم في الغرب في تلالٍ من الرمال والأحجار وهَجَع كل شيء لقرون طويلة سكن فيها الأقصرَ أجيالٌ أخرى وحضارةٌ أخرى لا تختلفُ كثيرًا عمَّا يُجاورها شمالاً وجنوبًا... حضارةٌ صَبَغَتها روحُ الجنوب ونخوتُه وخشونتُه وتأخُّره أيضًا عن الرَّكب الحضاري إلى أن أتى المحتلون الأوروبيون وأتى معهم الباحثون عن أسرار الماضي وكنوزه وغموضه. بدأت تتكشَّف الأسرار وتبوح الكتاباتُ الغربية بمكنونها وتنطق عن الماضي وعظمته وتكونت مجموعاتٌ من الدراويش الجُدد... دراويش الحضارة القديمة... ليسوا فقراءَ مالٍ وإنما جوعى حضارة. في تلك الأثناء كان سكان القرنة يرقبون ما يحدُث في توجس ورهبة... وبعد أن كانوا يخافون الأشكال المرسومة على جدران المقابر وأسمَوها المساخيط شعروا أن هؤلاء جزءٌ منهم فكانوا يصطفُّون لوداع مومياء أو تمثال مسروق لحظة مغادرته أرضهم، بل وكانت النساء تصرخ وتولول في تلك اللَّحظة وكأنهن في جنازةٍ مهيبة. أحسُّوا أن تحت منازلهم القديمة المتهالكة تربض أحلامُ الثراء... حفروا وفتشوا وباعوا ما وجدوه وأصبح الفقراء مُلاكًا أغنياءَ ورجالَ أعمالٍ ونخبةَ المجتمع الجديد. لكن هذا الاضطراب الذي اجتاح الأقصر في آخر قرنين من الزمان قد أزعج الملوكَ النائمين في مقابرهم فانتفضوا فجأةً وقرروا أن يتمردوا على هؤلاء الأحفاد وتململتْ تماثيلهم في مَراقدها وقررت كباشُهم الحجرية أن تُزيح بقرونها الحادة ما جَثَمَ فوقها من تراب ومبان... قرروا جميعًا أن يستردوا مدينتهم وقررت الأقصر أن تنزع رداءها الحديث وتعود للعصور الغابرة وتتزين بزينتها القديمة. اتفق حُكام الأقصر الجدد أن يجعلوا منها مُتحفًا مفتوحًا للعالم فانطلقوا يهدمون المدينة الحديثة متسلحين بفرماناتٍ عُليا

ورافعين شعارًا يخطف الأذن... طريقُ الكباش بين معبدي الكرنك والأقصر لابد وأنْ يعود للحياة... الفرعونَ وكهنتُه في معبد الكرنك لابد وأنْ يروا النيلَ الخالد دون أن تحجبه عن أعينهم سواتر... السياراتُ الحديثة لابد وأن تتوقف عن إزعاج إله المدينة (آمون) إذا ما جاء من معبد الكرنك لزيارة زوجته (مُوت) في معبد الأقصر... وأهم من كل ذلك لابد من وقف النزيف الدائم لكنوز المقابر في الغرب، ولا سبيل لذلك إلا أن يرحل المقيمون هناك إلى مكانٍ آخر.

تهتز الأرض تحت مدينة الأقصر وتضطرب... المساوماتُ والاتفاقات تسير على قدم وساق... الأباطرةُ تنتفخ خزائنهم بالمزيد والمحظوظون يبيعون قطعًا مَن الأراضي الزراعية بتلالٍ منِ المال وينضمُّون لقائمة الأباطرةَ. تنتشرُ الشائعات والمبالغات وتضلُ الحقائق طريقَها على ألسنة الناس... لا حديثَ على المقاهي أو الطرقات أو المنازل سوى عن فلان الذي أثرى فجأةً أو عائلة فلان التي تتشعَّب لعدة أسَر يسكنون بيتًا واحدًا ولكنهم أخطأوا حين عاشوا كعائلة واحدة بعدادٍ كهربائيٍّ واحد، وتضاعف خطأهم حين ألقتهم الأقدارُ فوق بقايا أحَد الكباش القديمَة المطمورة ففقدوا منزلهم وأعطوهم منزلًا واحدًا لا يسع سوى أسرة واحدة... الشائعات تلتهم المدينة... طالبٌ جامعيٌّ ابن أحد الكبار ممن يقومون بالجراحة الكبرى في الأقصر أصبح ذا مالٍ يتجاوز عدة ملايين... كان يأخذ العمولة بدلًا من أبيه.

الأقصر تتزين وتتلألأ تحت أضواء لامعة برَّاقة... الأنوارُ ذات الألوان تُطوِّق الأشجار في كل مكان... تتسع الشوارع عن ذي قبل... مَن كانوا يقيمون في الشوارع الخلفية في الماضي هم المحظوظون الآن لأنهم نجوا من هجمات الهَدْم المفاجئة، بل وأصبحت منازلهم تَكتَنف الشوارع

الرئيسية فارتفع ثمنها. بعض المصالح الحكومية تمَّ نقلُها، والبعض الآخر كُتِب له البقاء، وإلى إحدى هذه الإدارات كان طيب يتوجه كل صباح فكُتب له أن يرى ما يحدث أولًا بأول في الشرق حيث يعمل وفي الغربَ حيث يقطِن.

***

– "لماذا تأخرت يا طيب؟ هذه المرة الأولى لك، لعل المانعُ خيرًا؟"

– "كنتُ في استقبال أخيْ حسَّان بالأمس، وحاولتُ الاتصال بكم ليكون اليومُ إجازةً لي، ولكن لم يجبني أحدٌ... أين الأستاذ محسوب؟"

– "في المُصلَّى."

– " لم يؤذَّن لصلاة الظهر بعد؟"

– "أنت تعلم أنه يحب الإكثارَ من النوافل وهو الآن يصلِّي الضُحى."

– "حسنًا أعطني يا نصر بعض الملفات حتى لا تتعطل مصالح الناس أكثر من ذلك."

بدأ طيب في قراءة بعض الملفات الخاصة بطلبات التراخيص في أنحاء المدينة أو خارجها. في وقت قَصيرٍ كان قد أوشك على الانتهاء منها قبل أن يدخل إلى المكتب الأستاذ محسوب... رجلٌ يبدو في العقد الخامس من العمر ممتلئ الجسد... أصلعُ الرأس... غليظ الأنف والشَفاة... ذو شاربٍ يغلب عليه اللون الأبيض... أَسمرُ البشرة وتتوسَّط جَبهَته علامة

السجود ذات اللون الداكن التي تبرز عن جبهته. دخل إلى المكتب على عجل ويُمسك في يده بمسبحة قصيرة وهو مازال يُتمتم ببعض التسبيحات. وجَّهَ نفسَ السؤال لطيب ثمَّ جلسَ على مقعده الذي يتصدّر الغرفة فهو الذي يرأس الموظفين الثلاثة العاملين في قسم التراخيص. بعد لحظات من الصمت تقدم نصر ناحية الأستاذ محسوب وبيده بعض الأوراق الماليّة فئتي الخمسين والعشرين جُنيهًا.

– "هذا ما رُزقنا به وأنت تصلي يا أستاذ محسوب... يبدو أنك قد دَعَوتَ لنا حقًا هذا اليوم."

– "ما شاء الله... ما شاء الله... إنَّ رزقَ اليوم كثيرٌ يا نصر... لكن ألم تُخفِ منه شيئًا، فأنا أعرف أن نوباتٍ من الجشع تنتابُك أحيانًا؟"

– "أنت دائمًا تُسيء الظنّ بي يا أستاذ محسوب... هذا كل ما حصلتُ عليه أثناء غيابك واسأل طيب."

– "لا تُشركني في هذا الحوار يا نصر، فأنا لستُ طرفًا فيه."

– "لن أسألَ أحدًا يا نصر، فالله بيني وبينك لأنه يكره الظُّلم."

أثارتْ كلماته الأخيره شيئًا في صدر طيب الذي أبدى ضيقه في زفراتٍ غاضبةٍ خرجت منه بلا تعمدٍ وإنما تعبير عمّا بداخله.

– "ما بك يا طيب؟ هل غيَّرتَ رأيك وتريد مشاركتنا؟ إنْ كان الأمرُ كذلك فسيكون هذا من الغد وليس اليوم."

– "لا اليوم ولا غدًا ولا في أي يومٍ يا أستاذ محسوب... لكنّي أتعجب لأمانتكم الشديدة في تقسيم ما أخذ من الناس بالباطل! كيف تُشهد الله على المال الحرام؟"

وجْهُ الأستاذ محسوب الذي كان لتوِّه منبسطًا حينٍ كان يمازح نصرًا وَجَم تمامًا ونظر بحدة ناحية نصرِ الذي لم يكن يلقي بالًا لكلمات طيب، و لم يكن مستعدًا ولاً راغبًا في المجادلة في نفس الموضوع ثم التفت مجددًا إلى طيب محاولًا قدر استطاعته أن يجعل صوته هادئًا وأقرب لنبرة النُّصحِ منه للجَدَل...

– "يا طيب، أنا أعتبرك ابني الأكبر، وأشفق عليك وعلى مستقبلك... ستمر سنوات العمر دون أن تكون قادرًا على إتمام نفقات الزواج..."

– "لن يكونٍ هذا مبررًا لي لأغير ما أعتقده أو أفعل ما لا أومن به... كما أني لن أملَّ الحديث معك أنْ تتقي الله في أولادك وتتوقف عن إطعامهم من أموال الرِشوة."

– "يا بني، هذه ليست رشوةً... هذه معايشٌ ورزق... يدفعها الناس لنا عن طيبِ خاطرٍ... كما أننا نساعدهم في اختصار الوقت فالإجراءات التي تستَغرق أسبوعًا تتم في يومٍ أو يومين... فعن أي رشوةٍ تتحدث؟!"

– "يا أستاذ محسوب، يمكنُنا إن أردنا أن نُنجز تلك الإجراءات في ساعات قليلة... نحن من نجعلها تستغرق أسبوعًا أو أكثر فيجدَ الناسُ أنفسَهمّ مضطرين لدفع الرشوة متصنّعين الرضا والابتسام وهم بداخلهم يلعنون مَن يدفعون له."

– "أنت تضيع عمرك هباءً... إن من يدفع لنا خمسين جنيهًا يربح أضعافها كل يومٍ."

– "هذا عمله ورزقه فلماذا نشاركه فيه بدون حقٍّ؟"

- "لأن الأقصر الآن قطعةٌ من الذهب ومن لا ينال نصيبًا منها الآن فلن يجد تلك الفرصة أبدًا. أما تسمع عن الملايين التي تُدفع كل يومٍ وتنظر لحالك وتتأمله؟"

- إنَّ ما يحزنُني حقًّا أن يختلط كل شيء وتضلَّ الحقيقة طريقَها بين الزحام والركام... جميلٌ أن يجعلوا من بعضِ مناطق الأقصر مُتحفًا مفتوحًا شاهدًا على تراثنا وجذورنا ولكنَّ المحزن أن يتم تشويه نُبلَ المقصد بسوء التنفيذ وغموضه."

- "لا أفهمك يا طيب... ماذا تعني؟"

- "أعني تلك المباني القديمة التي تمَّ هدمُها والتي كانت جزءًا من الأقصر وتاريخها وحضارتها الحديثة مثل المكتبة الأمريكية وقصر الباشا... كما أنَّ المسجد والكنيسة كانا يمكن الاحتفاظ بهما."

- "ألم أقل لك أنك وأباك تعيشان في وادٍ وكل الناس يعيشون في وادٍ آخر... الوحيد الذي سيعرف كيف يستفيدُ هو حسَّان أخوك الأصغرُ وأعتقد أنه قد يبدأ خطواته قريبًا كما أتوقع أن أرى بعض الأوراق الخاصة به في المصلحة قريبًا جدًا... فلماذا لا تشاركه في بعض المشروعات."

- "لن أشاركَه فيما دفع ثمنه منفردًا."

بينما يتجادل الاثنان إذا بنصرٍ يلوِّح ببعض الأوراق المالية في الهواء مشيرًا بها إلى الأستاذ محسوب حتى يراها بوضوحٍ إمعانًا في إبراء الذمة!

- "يا جماعة، هذه مائتا جنيهٍ قبل أن أضعها في الدرج."

أشار إليه الأستاذ محسوب بالموافقة قبل أنْ يسمع صوتَ المؤذن فتوقَّف عن الكلام وأخذ يردد الأذان خافضًا رأسه ناظرًا بوجهه للأرض في إعلانٍ زاعقٍ للخشوع... وأصابعه تمرر حبات المِسبحة في حركةٍ متناغمةٍ مع الأذان وتمتمات فمه.

الأستاذ محسوب من غرب الأقصر... لا يملك أرضًا ولكنه موظفٌ حكوميٌّ تتجمع أمامه الكثير من الأوراق الخاصة بكبار رجال المال والأعمال في الأقصر... عرف كثيرًا من الأسرار، وعرف معها كيف يستخدم كلا منها في الوقت المناسب وبالثمن المناسب. أصبح يملك سيارةً حديثةً ومنزلًا من طابقين وأموالًا تعدت عدة ملايين من الجنيهات لا يعرف عنها أحدٌ من المحيطين به شيئًا سوى زوجته وأبنائه. هاتفٌ في داخله أنه لم يقفز القفزة الكبرى في حياته بعد... ضجَّت رأسه بالقصص والحكايات والشائعات عن أغنياء الآثار الذين انتقلت بهم قطعةٌ واحدةٌ من مقبرة مجهولة لمصاف الكبار... قرر أن ينتظر ويهب نفسه لتلك اللحظة السعيدة جدًا والخاصة جدًا في حياته... ولم يخالجه شك في أي وقتٍ أنها قادمةٌ لا محالة وما عليه سوى الانتظار والترقب.

***

كانت حتشبسوت زوجةً لأحد ملوك مصر الأقوياء في عصرها الذهبي... في حياته قنُعت بدور السيدة الأولى... زوجة الملك تتمتع بالحياة في ظل قوته وهيبته... حتى إذا ما ماتَ عنها تفجَّرت بداخلها الرغبة الجامحة في الحُكم فنحَّت ابنَ زوجها الطفلَ الصغير وريثَ العرشِ جانبًا في القصر... لقَّبت نفسها بألقاب الملوك واصطفَت لنفسها رجالًا تقوم بهم دولتُها وبنت لنفسها المعابد ونصَّبت التماثيل... لكنها لم تفلح

في كِبح جماح طبيعتها كامرأة فسقطت أسيرةً للعشق... وكان العاشق رجلَ بلاطها الأول... مهندسًا وبناءً ورجلَ سياسة. اقترب من هالة المرأة الملك ويبدو أنَّ اقترابه قد أثار في صدور منافسيه الحسدَ والحقد فأوغروا قلبَ العاشقة ضد الفنان العاشق في أواخر أيامها... فافترقا بلا عودة. كانت مروة تحب هذه القصة الأسطورة عن ملكة مصر حتشبسوت، وقد كانت تستمتع بأن تحكيها لطيب مرات ومرات. يتلهَّف طيب في انتظار يوم الجمعة من كل أسبوع ليكون ممكنًا له أن يرى مروة... هو يراها دائمًا في المنزل مع أمه، ولكنه لا يجروء أن يتبادل معها أكثر من العبارات التقليدية وكان يسعَدُ ويقنَعُ أن يختطفَ منها نظرةً عابرةً أو ابتسامةً هادئةً رقيقةً تداعب شفتيها... إنْ كانَ اللقاء ممكنًا كانت تشير له برأسها بالموافقة، أما إنْ تعذر خروجها فلم يكن بحاجة لانتظار إشارة الرأس... بل يكفيه النظرُ لوجهها ليقرأ الحزنَ المقهورَ في عينيها الذي لا يجروء حتى على إعلان ميلاده على وجنتيها ويظل حبيسًا انتظارًا للتمرد الأعظم. أحيانًا تمر أسابيع طويلة دون أن يتهيأ لهما هذا اللقاء، وأحيانًا يحتويهما القدر بمزيدٍ من الدفء فيلتقيان في أسبوعين متتاليين.

أهل القرنة يعرفون بعضَهم البعض وقصص العشق والغرام يلفظها المجتمع الجنوبيّ الخشن كما يلفظ كثيرًا من المشاعر والأحاسيس الإنسانية ويعتبرها ضعفًا لا يليق برجلٍ أو عارًا لا يليق بفتاة وسيلاحق عائلتها للأبد. إذا ما شبَّ الفتى وخطَّ الشارب وجهه لا يستطيع أن يُلقيَ بجسده بين ذراعي أمه وتغدو دموعه من المحرمات التي تخصم من رجولته ليس فقط بين أقرانه بل ربما حتى بين إخوته... وقد يقضي الرجل عمرَه دونَ أن ينعمَ بدفء تلك اللحظات. أما الفتاةُ فإذا ما بلغت مبلغ الأنوثة تصبح هي نفسها شيئًا هشًا يجب الحفاظ عليه من الكسر

حتى تُزفَّ لمن يروق لأهلها... يصبح حقها المشروع في الاختيار من باب إتمام شعائر الزواج، ويغدو مجرد التفكير في العشق خطيئةً قد تفوق خطيئة الكفر. هذه عقيدة الريف في الجنوب والقرنة في ذلك شأنها شأن هذا الجنوب، ولكنها تتفرّد عنه بأن تقبل لبعضٍ فتيانها أحضانَ عجائز وشمطاوات الغرب بلا ذرة ريبة أن هذا خطأ وبلا شعورٍ ولو خافت بتأنيب العقول أو القلوب أو الضَّمير... و لم يقتصر هذا التفَرد على هذا القبول بل تخطاه إلى التعايش علنًا مع ما كان مستورًا عندما توحش المال وعاشقوه وظهرت كلمةِ الدردوم خافتةً أولًا ثم ما لبثت أن تبجّحت وكشفت الستر... عقيدةٌ جازمةُ أن ذلك من باب الرزق أو المعايش... ولا يرى المجتمع أي تناقضٍ بين التشدد المغلّف بالغلظة أحيانًا مع أي بادرة لقصة عشقٍ تكون طرفها إحدى البنات وبين هذا القبول المغلف بالتسامح والتحضّر والاستحسان والحسد أحيانًا حين يروا شابًّا تتعلق به عجوز بيضاء. في هذه الخيوط المتشابكة المعقدة كانت مروة فاتنة القرنة وطيب ضمير القرنة النقي يتحسسان طريقهما للوصول إلى تتويج هذه المشاعر وهذا العشق بأن تجمعهما جدرانٌ واحدة وتظللهما مظلة السماء... لا يهمُّ ما تحتويه هذه الجدران من تفاصيل... كانا على استعداد أن يفترشا معًا كليمًا صعيديًّا أو حصيرًا يابسًا أو حتى الأرض بدون الحصير أو الكليم... كل ما يطمحان فيه هو مباركة هذا المجتمع الخشن لاجتماعهماَ بين هذه الجدران. تلك الرغبة لا شكَّ ستصطدم بإحدى الرؤوس الغليظة والقلوب الفظّة التي لا تعرف عشقًا غير عشق المال... رأس طايع والد مروة... أحد أغنياء الغرب بأرضه ومصانعه ومحلاته وتجارته في التاريخ وعلاقاته مع بعض جُزر القوى في الأقصر وخارجها التي تمهِّد له طريقَ تجارته وتقاسمه الأرباح. وإلى أن يجمع القدرُ الأرواحَ المؤتلفة اتَّفقت مروة مع طيب أن يلتقيا عند الملكة العاشقة...

عند معبد الملكة حتشبسوت في البر الغربي... مكانها المفضل وأيضًا حيث تعمل إحدى صديقاتها وكاتمة سرها... وتلك كانت الحجّة المقنعة لطايع وزوجته أم السعد ليسمحا لها بالخروج. هذا المعبد المنحوتُ في قلب الجبل الغربي ذو جلال ورهبة وقد نَحَتَه المهندس العاشق لملكته من ثلاثة مستويات، الجزء الأعلى منه مغلقٌ حيث تعمل إحدى البعثات الأثرية الأجنبية... وكان هذا هو المكان المختار للقاء. في المرة الأولى التي ذهبا فيها إلى هناك رأتهما إحدى الأثريات العاملات في البعثة... أحسّت بما يجول في خاطرهما وسمحت لهما بالدخول والجلوس في ظلال إحدى تماثيل الملكة... تعانَقت الأيدي وتلاقت العيون وأحسّ القلبان بالدفء والاطمئنان.

– "سأتحدث مع أبيك... لا يوجد سببٌ للانتظار."

– "ليس الآن... لن يوافق... إنه يريد تزويجي لزكيبة مال... أبي قد أصابته لوثة المال... على الرغم من أنه يُعد من أغنياء القرنة لكنه يريد دائما المزيد."

– "أنا لست فقيرًا يا مروة... فنحن نملك قطعة أرضٍ كبيرة."

– "أرضٌ زراعيةُ لا تعطي سوى محصولها ولا أوافقك أن تبيع جزءًا من أرضك لنتزوج... لنصبر قليلًا."

– "سأحاول أنْ أقنعَه أو حتى أقترض بضمان الوظيفة."

– "يا طيب، المشكلة ليست في المنزل الذي نسكنه أو الأثاث أو مصاريف الزواج... المشكلة أن أبي يريدني أن أتزوَّجَ أحد الأغنياء أو رجال الأعمال... لقد سمعتُه يتحدث مع أمي."

- "هل ذكر لها شخصًا بعينه؟"

- "لا، ولكنه يقول أن الزواج هو زواج عائلتين وليس شخصين... يريد أن تتزوج عائلته من عائلة غنية وذات شأن لكي ترتفع العائلتان معًا. ولكن لا تقلق فأنا لن أكون لأحد غيرك... وهذا وعدي لك."

قالت تلك الكلمات الأخيرة وقد نَظَرتْ في حياء إلى عينيه فلم يملك إلا أن يحتويها بذراعيه وتلامَسَت شفتاه مع جبهتها في قبلة دافئة أذابتها وأغمَضَت معها عينيها. لم يكن طيب الوحيد في القرنةَ الذيَ يحلم بالزواج منها... فقد اجتمعت لمروة ما يطمع فيه أي شابٍّ من الجنوب من عراقة الأصل وفتنة الجمال ووفرة المال... فهي خمريةُ اللون وممتلئةُ الجسد قليلًا عند الأرداف والصدر... طويلةُ القامة وتبرز تلك السمَات والمفاتن حين ترتدي العباءةَ السوداء عند الخروج من المنزل كعادة المتعلمات من فتيات عائلات الجنوب المتحفّظة... ذات وجه ممتلئ وشفتين مكتنزتين مثيرتين وأنف متناسقٍ مع استدارة وحجم وجهها... العينان داكنتان بين اللونين الأسود والبني. قضت بعض السنوات خارج القرنة وخارج الأقصر عند التحاقها بالجامعة ورافقتها بعض الصديقات من القرنة. عند عودتها لم تفعل كما فعلت بعضهن وتُغيّر لكنتها الجنوبية بوقعها المميز، وكان طيب يعشق أن يسمعها تتحدث بتلك اللكنة.

- "كنت أشاهد بعض أفلام العشق في التلفاز منذ الصغر، وكنت أشعر أني يومًا سأكون بطلًا لإحدى القصص المشابهة."

- "وأنا أيضًا... لكن هذا الشعور كان يرهبني... فأنا أدرك مصير من تفعل ذلك... ولكني لم أستطع أنْ أمنع نفسي، وكأنَّ القدرَ يسوقني للنهاية التي أعرفها."

- "أشعر أن تلك الرهبةَ والخوفَ من الاحتراق الذي يصبغ قصص العشق في الصعيد يزيد من صدقها وجلالها وجنونها أيضًا."

- "أنت تفكر مثلي وتصوغ الأفكار التي تسيطر على رأسي في كلمات جميلة... أنت تقرأني قبل أن ينطق فمي، ولهذا أشعر أنك أقرب الناس إليّ."

- "هذا هو رباط الأرواح الذي لا نلتفت إليه هنا فيدفعنا عنادُنا وجهلُنا بالنفس الإنسانية وكبرياؤنا الأجوفَ لأن نُزوِّجَ هذا لتلك بدون أن يكون لهذا الرباط أي وجود... وتكون النتيجةُ أمواتًا تجمعهم جدرانٌ واحدةٌ تصبح هي الأخرى جدرانًا موحشةً تتعجل وتُعجِّل النهاية."

- "لماذا تتحدث هكذا؟ لقد انقبض قلبي."

- "فليطمئن قلبُكِ... لن أدعكِ تكونين ضحيةً لزواج أموات... وهذا وعدي لك."

- "أنا أبدًا لن أقلق طالما كنتُ معك."

هبطا درجَ المعبد سويًا وكانا عليهما الافتراقُ فواصلت مروة هبوط الدرج بينما فضَّل طيب أنْ ينتظر من الوقت ما يكفي لها أن تغادرَ المكان... فهو إنْ غادرَ في إثرها ورآها لن يكون قادرًا ألا ينظر إليها بما يشي للجميع بما يحمله بين ضلوعه من هوى. بينما هو جالسٌ هناك رأى إحدى أسَر القرنة وقد جاءت لزيارة المعبد... عرف من مظهرهم أنهم عائلةٌ ريفية مازالت تزرع الأرض... فالزوجة الشابة ترتدي الملابس الريفية السوداء والحذاءَ البلاستيكي الأسود والزوجُ الشاب تكاد قدماه تمزقان الحذاء من تفرطحِهما وتشقُّقهما ويبدو أنه يقاوم كثيرًا لكبح

رغبة جامحة في خلعهما؛ لأن هذه التشققات لا تؤلم إلا إذا تمّ ضمهما قسراً داخلَ حذاء، أما إذا ما كانت حرةً طليقةً فلا ألم. مع الزوجة ثلاثةُ أبناء أكبرهم لا يتجاوز الثانية عشرة وهو يجيد القراءة وكان يحاول جاهدًا القيام بدورِ المرشد السياحي للعائلة ويحاول نطق اسم الملكة حتشبسوت... ذكر بعض العبارات القصيرة عنها التي قد تعلمها في الصف السادس الإبتدائي. أما ما تعمّق طيب في ملاحظته فهو العلاقة بين الزوجين الشابّين... فلا حوارَ إلا إذا كانت بعضِ الأوامر من الزوجِ لزوجته التي تتجاهل معظمها، أو تردُّ ردودًا مقتضبةً لا تتجاوز الكلمةَ الواحدة. هناك خيوطٌ مفقودةٌ أو أنها لم تكن موجودةً أصلًا، وحوارٌ لم يكتمل وربما لن يكتمل أبدًا فهما غير مهتميَن أو راغبيَن في اكتماله. لم يعجب طيب لذلك ففي الصعيد يحيا الناس الحياة الاجتماعية ليس حبًّا فيها أو اختيارًا لها بقدر ما هو قيامٌ بدورٍ لا بد من القيام به إرضاءً للآخرين... يشبُّ الفتى عن الطوق ويفكر في الزواج فيجد اختيارات محدودة ومحددة إنْ أرادَ الإبقاء على أواصرِ الدم مع أسرته، ويمكنه أن يخرقَ هذه الاختياراتَ إن كان مستعدًّا لهذا الخرْق فهو سيواجه ما يعقُب ذلك من عقابٍ اجتماعيٍّ مستترٍ في مجمله... أما البنت فهي مسيَّرةٌ في معظم خُطواتَ حياتها وقد يتوجَّب عليها احتمالُ احتراقِ سنوات عمرها وفاءً لوعدِ أبٍ أو كلمةِ أخٍ أكبر.

# الصعود

لم ينتظرْ حسَّان طويلًا حتى يبدأ في تنفيذ مشروعاته بمال آلان الذي أصرَّ أنْ يكون شريكا في كل تلك المشروعات بصفة رسمية... و لم يتأخر طايع في عرض مساعدته لإنهاء كثير من الأوراق الحكومية مستغلًا شبكة معارفه الواسعة المنتشرة في شرق الأقصر وغربها... قاموا باستخراج الرُّخص اللازمة لبناء منزل كبير ذي طوابق أربعة في الغرب وأربعة محلات تجارية على غرار محلَّات المدن الكبرى ومخبز للدقيق الأبيض، كما اشترى حسَّان أربع سيارات فارهة. فعل كل ذلك ولكنه لم يقوَ على الذهاب إلى منزل والده الشيخ عزب الذي مازال يعتقد أنّ ابنه تزوج من امرأة غربية عجوز، و لم يقبل ذلك فماذا لو علم الحقيقة؟ يخشى حسَّان مواجهة نظرات عيني أبيه الصارمة. بدأ البناء في الارتفاع كما أصبح حسَّان وجهًا مألوفًا في القرنة يتزلف إليه المتسلقون والطامعون بالألقاب الفخمة... اعتبروه مثلًا للصائد الماهر ويحسده البعض على حظه الفائق... يتمنى طايع لو طلب حسَّان منه الزواج من مروة رغمًا عن علمه أن الزوجة الحالية لحسَّان ليست إلا رجلًا، ولكنه يعتقد أنه لا

فرق بين امرأة عجوز ورجل... المهم ما يمتلكه أي منهما. همام ذلك الفتى الصغير الذي لم يكملْ تعليمه وصار يتحسس خطوات حسّان، تزداد قناعته كل يوم أنه كان على صواب... فها هو مثله الأعلى يغدو في وقت قصير من أعيان القرنة صغار السن... اختار أن يتقرب لحسّان ومع الوقت يزداد التصاقه به ويصبح أحد العاملين لديه... أوكل إليه إدارة مخبز الدقيق الأبيض الذي افتتحه في شرق الأقصر. انتقل حسّان وآلان إلى المنزل الجديد و لم يكشف السرَّ أحدٌ بعد سوى طايع. رأى حسّان أخاه طيب عدة مرات... طلب منه أن يرى أباه إلا أن طيب رفض قدومه للمنزل برًّا بقسم والده "إذا جاء معها فلن يدخل أي منهما الدار"... لكنه نصحه أن ينتظر أباه خارج المسجد في أي وقت من أوقات الصلاة فيتحدث معه وكأنه التقاه مصادفةً... فطيب لم يفقد الأمل في عودة أخيه إلى الطريق القويم.

- "كيف حالك يا أبي؟"

- "الحمد لله يا بني... مَن أنت؟"

انقطع التيار الكهربائي بينما يهمُّ المصلون بمغادرة المسجد بعد صلاة العشاء... لم يتعرف الشيخ عزب على صوت ابنه و لم تلتقط أذنه كلمة أبي التي لفظها حسّان في خفوت حينما رأى أباه خارجًا من المسجد. إنما رأى الشيخ عزب شبحًا يقفُ في الظلام فلما اقترب منه وتفرَّس ملامح وجهه أدرك من هو... ثَقُلت خطواته وأحسَّ أن صدره يضيق فجأةً كلما اقترب من ابنه... توقف ثم استدار عائدًا إلى طريقٍ آخر وقبل أن يختفيَ عن عيني ابنه التفت إليه...

- "في كل عمري لم أتمنَّ يا بني أن يقبل الله دعائي كما أتمناه في تلك اللحظة... اللهم اهدِ ابني واقهر شيطان نفسه."

أكمل الشيخ مسيره واختفى ووجد حسَّان نفسه وحيدًا في ظلام الشتاء الموحش ولم يأنسَ إلا بأصوات خافتة تنبعث من خلف بعض الأبواب الريفية على جانب الطريق... تعجبَ حسَّان أن انقطاع التيار لم يدم طويلا... لم يستمر أكثر من الوقت اللازم لكي لا يرى وجه أبيه بوضوح... لم يدرِ أيفرح أن أعفاه ذلك من نظرات عيني أبيه الحارقة، أم يحزن لأنه الآن فقط قد أدرك ما فقدَه... إنه حتى لا يستحق أن يرى وجه أبيه. ركب سيارته وانطلق ناحية الشرق... يريد أن يكون بمفرده أطول وقت ممكن... استمرت السيارة تمرق في شوارع الأقصر حتى وجد نفسه قريبًا من المطار. أوقف السيارة... خرج منها... هواءُ الصحراء الجافُ شديدُ البرودة أصاب جسدَه بقشعريرةٍ لم يقيه منها ذلك المعطف الذي أحضره من إنجلترا، وإنما أدفأه ما اقتحمَ صدرَه من هذا الهواء وما غشيَ عينيه من ظلام دامسٍ وصحراءٍ فسيحة. قضى بعض اللحظات قبل أن يستدير عائدًا للغربَ وفي طريقِ عودته عادت له نفسه وطبيعته... أخذ يرتب أفكاره من جديد.. "لقد بعتُ كل شيءٍ وما يجب أن أفكر فيه أن أحصل على كل ما أستطيع الحصول إليه... تلك المشروعات الهزيلة التي افتتحتها لا قيمةَ ولا وزنَ لها... لابد أن تكون لي قفزاتٌ سريعةٌ... مال آلان سوف يساعدني بلا شك ولكنه ليس كل طموحي... همام يقضي كل وقته في الشرق ويعرف ماذا يدور هناك... تجارة الآثار الآن تحت مراقبة الجميع كما أن دخول الخراتيت الكبيرة هذا السوق بشكل شبه علنيٍّ ليس إلا تهديدًا للصغار أنْ يتعدوا... سيتم الاستغناء عن أحدِ تروس هذه التجارة... وما حدث في القرنة هذا الأسبوع دليلٌ وإنذارٌ

لهؤلاء الصغار... من المؤكد أن هناك طُرقًا أخرى لاستكمال ما بدأتُ حتى أحصل على الثروة التي بعت كل شيءٍ من أجلها... لابد أن أتحدث مع همام..."

***

آمنة التي يلقبها أهل القرنة باسم يامنة مازالت تستيقظ في الفجر لتبدأ يومها بالصلاة كما كانت تفعل قبل أن يموت زوجها تاركا لها نصفَ فدانٍ من الأرض وطفلاً صغيرًا لم يتجاوز السادسة من عمره اسمه همامًا. نصحها الأهل والأقارب أن تأخذه إلى الغيط ورفَضَت... بعد أسبوع من وفاة الزوج قام خلاله بعض أقاربها بخدمة الأرض، فاجأتهم ذات صباحٍ تحمل فأسًا ومنجلاً وصُرَّةً بها رغيفٌ من الخبز الشمسي وقطعةُ جبنٍ.

- "إلى أين ذاهبة يا يامنة؟"

- "إلى أرض زوجي وابني."

- "خذي همام يعمل معك في الأرض... ماذا سيأخذ من العَلام... أتحسبين أنه سيصبح ترجمان؟!"

في كل مناطق مصر هناك بعض المهن تُفضَّل على أخرى وتُعد أنها أعظم ما يتمناه الوالدان لأبنائهم... أما في القرنة فالرعيل الأول الذي رافق السائحين الغربيين الأوائل كان يطلق عليهم ترجمان... بعضهم قد كوَّن ثروات لا بأس بها... وكما تغيرت القرنة فقد تغير اسم الترجمان إلى مرشدٍ سياحيٍّ... ويامنة مثل قريناتها من الجنوبيات لم تتعلم و بالكاد

تحفظ سورة الفاتحة وسوَر الإخلاص والمعوذتين لتقرأهم في الصلاة... وهي لم تكن تعرف عمَّا يتحدثون، ولكنها فقط أرادت أن يصبح ابنها متعلمًا يرتدي القميص والبنطال كأبناء البندر الذين كانت تراهم حين كانت تشاهد التلفاز... بعد أن يتعلم سيعود للوقوف معها في الأرض مثلما يفعل طيب مع أبيه. يامنة لم تذهب إلى شرق الأقصر سوى مرات قليلة في كل حياتها، على الرغم أنه لا يفصلها عن الأقصر سوى ساعة من الزمن. كما أنها لم تذهب في عمرها لأيٍّ من آثار غرب الأقصر سوى مرة واحدة كانت فيها مأمورة... فبعد مرور عام على زواجها لم تنجب... استشارت صديقاتها المقربات اللائي اعتبرن هذه فترةً طويلةً جدًا وأشرنَ عليها بزيارة قبور القدماء والطواف حول أحد التوابيت هناك. ذهبت مع رئيفة... دخلتا إحدى المقابر المنحوتة في الصخر... أرهبهما جلال المناظر الغريبة على الجدران... قادهما حارس المقبرة إلى غرفة الدفن في آخر المقبرة حيث التابوت الصخري الجرانيتي يتوسط الحجرة. وقفت رئيفة عند أحد أركانه ثم شرعت يامنة تطوف حوله وتساعدها رئيفة والحارس في العد... فلابد أن يكون العدد مفردًا، خمسة أو سبعة مثلًا. عادتا بعدها للقرنة وثارت عاصفةٌ حادةٌ من الشيخ عزب حين علم بما حدث وعنَّف زوجته رئيفة كيف لها أن تصومَ وتصلي ثم تعتقد في قطعة حجر...

- "هذا كفرٌ يا امرأة... حقًّا أنتنَّ وقود النار."

- "كل حريم القرنة تفعلنَ نفس الشيء فلماذا تلومنا نحن؟"

أما زوج يامنة فلم يلمْها بل سَخر مما فعلت... أخبرها مازحًا أنها لن تنجبَ أبدا... ولكن الغريب أنها قد حملت بعد ذلك بقليلٍ وأنجبت ابنها الوحيدَ همام.

عندما قررت أن تقوم بزراعة الأرض، سخر منها البعض وكانت تقابل سخريتهم بسخرية لاذعة... ولم تكن تتورَّع أن تستخدم بعض الألفاظ السليطة القاسيةً التي تردع من تُوجِّه له وتمنعهم من التعرض لها. امتلكت قدرةً فطريةً هائلةً على تحديد نقاط الضعف في الشخص المطلوب ثم تُطلق سهمها الذي لا يخطئ هَدفه... لفظٌ قاسٍ لا يلبث أن ينتشر في القرنة ويلتصق بصاحبه. مرَّ الوقت وخشي لسأنها الناسُ فتوقفوا عن مضايقتها والسخرية منها، وأحبوها حين أصبح وجودها في غيطان القرنة من المألوفات... من وقت لآخر يحضر أحدهم لمساعدتها في أعمال الزراعة أو تنظيف الأرض من الحشائش. في أثناء السنوات الأولى أخذ همام قسطًا من التعليم حتى أنهى مرحلته الإبتدائية حيث بدأت عيناه تتفتحان على رؤية بعض شباب القرنة وقد أثرَوا فجأةً فقرر أن يبدأ خطواته بالعمل بائعًا سريحًا للعاديات تمامًا كما فعل حسَّان. لم تقوَ يامنة على مَنْعه ولم تسعفها قوتها البدنية التي أهلكها الغيط أو حدَّةُ لسانها أحيانًا على إجباره على إتمام مسيرته في التعليم. استسلمت لقدرها ولم تعد تسأله عما يفعل... اكتفت بالحفاظ على الأرض... أحيانا تزرع جزءًا من أرضها بالخضروات التي يمكنها أن تحصدها عدة مرات في العام... توسط لها كبار جمعية القرنة الزراعية لاستثنائها من زراعة القصب.

عاد حسَّان ورأى في همام طموحًا جامحًا فقرر أن يكون أحد رجاله الذين يعتمد عليهم في رحلة بحثه عن المال والنفوذ وأوكل له إدارة المخبز في شرق الأقصر.

– "ماذا يدور في الأقصر الآن يا همام؟ ما هي مجالات الرزق؟"

– "في ضجيج الهدم والبناء وإعادة تسكين الأهالي لن يلتفتَ أحدٌ إلى ما يحدث في الآثار... إنها فرصةٌ لعمل صفقاتٍ كبرى يمكن أن نسميها صفقات اللحظة الأخيرة."

– "نعم فرصة، ولكنها ليست لنا."

– "أنا أعلم عددًا كبيرًا من أهل المال والأعمال بدأوا حياتهم بصفقةٍ واحدة."

– "ساعتها لم يكن أحدٌ ينتبه لما يحدث، ولكن الآن هناك رؤوسٌ ضخمةٌ متوحشةٌ سيطرت على هذه التجارة... فهي ليست لنا... فماذا غيرها؟"

– "هناك مغارة على بابا التي فُتحت على مصراعيها في الأقصر... بيع وشراء الأراضي... العمولات والسمسرة... قطعة أرضٍ زراعية تصبح هدفًا مطلوبًا فيتضاعف ثمنها عشرات المرات."

– "وماذا عنك ؟ ما هي أحلامك لنفسك يا همام؟ أما تنوي الزواج؟"

– "لن أتزوج مصرية... أنا أبحث عن مَرَة عيش وأفضِّل أن تكون إنجليزيةً فقد جرَّبتُهن... أمامي أكثر من عرض، ولم أتخذ قرارًا بعد فمازلتُ أقارن بينهن."

– "هل بينهن واحدةٌ وراءها مصلحةٌ جيدة؟"

– "كلهن تقريبًا متساويات... موظفاتٌ بلغن سن التقاعد عن العمل... بِعنَ منازلهن وجئنَ للأقصر ويبحثنَ عن رفقاءٍ في العشرينات

أو الثلاثينات. الفرق في العملة يجعل دخلهن الشهري في الأقصر ممتازًا لكن لا شيء وراءهن أكثر من ذلك."

– "أنصحُك بالتروي حتى تعثر على الصيد المناسب. ولكن أخبرني كيف نبدأ إذا أردنا الدخول لما أسميتَه مغارة على بابا؟"

– "لا يوجد في الأقصر كلها طريقٌ آخر لدخول المغارة سوى الحاجة قطر الندى."

– "قطر الندى؟!"

# الأميرة قطر الندى

سيارةٌ فارهةٌ سوداء تتبعها سياراتٌ أخرى تعبر كُبري الأقصر وتنحرف ناحية القرنة ثم تكمل مسيرها نحو قرية البُعيرات التي تجاور مرسى مَعديَّة الأهالي في الغرب. يتوقف الموكب أمام أحد المنازل الريفية. يطرق أحد الزائرين الباب الخشبي الذي يُفتح وتطلُ منه فتاةٌ صغيرة ترتدي فستانًا من قماش الكستور الريفي الرخيص، وأسفله ترتدي بنطالًا من نفس القماش واللون، وتربط على رأسها إيشاربًا من النايلون أخضر اللون... تهلّل وجه الفتاة بفرحة طفولية ضبابية عندما رأت السيارات أمام المنزل... انطلقت تُخبر أهل الدار. يدخل الزائرون إلى الداخل تتقدمهم امرأة... بعضهم يحمل حقائب في أيديهم. لم تمض أكثر من ساعة خرج بعدها الزائرون بعد الانتهاء من مهمتهم ثم انطلقوا مغادرين القرية. بعد مغادرتهم انطلقت الزغاريد من المنزل المقصود. كان الموكب في مهمة تفاوضية ومساومة داخل الدار لشراء قطعة الأرض الزراعية التي تملكها العائلة... لم تكن قطعةً كبيرةً ولكنها تقع بالقرب من القصور الجديدة التي تم بناؤها في القرية وتملّكها الأجانب في السنين الأخيرة... جاء دور هذه العائلة في البيع وفرحوا بالمبلغ المكون من ستة أرقامٍ تكفي لإسالة لعاب البسطاء

الذين لم يعتادوا العدَّ أكثر من ثلاثة أرقام حتى في أحلامهم... ثم فجأةً جاءت أميرة الأحلام إليهم لتفتح لهم مغارة على بابا.

***

الحاجَّةُ قطر الندى أم الأميرةُ قطر الندى؟ في مجتمع صعيديٍّ مازال في أعماقه محتفظًا بهوية تجل قيَم الدين وألقابه، كانت تفضِّل لقبَ الحاجة... فهو يفتح لها القلوبَ البسيطة قبل الأبواب المغلقة... تلك القلوب التي مازالت تحلم بالحجِّ والصلاة بالقرب من الكعبة... والتي مازالت تحسُّ ضعفًا إذا ما ذُكرَ هذا المكان المقدس. امرأةٌ خمريةٌ اللون في العقد الرابع من عمرها... العقد المتوهج بطبيعته... كيانٌ متفجرٌ بالحياة والحيوية... جاذبيةٌ ساحرةٌ تخترق العيون وتخطف الألباب... ليست أجمل امرأة يمكن أن تراها العين، ولكنها تفوق أي امرأة في سحر خاصٍّ غامضِ المصدر. شعرها الأسود المتهادي على كتفيها يُعلن عن امرأة عصرية قهرت الكثير من القيود... العينان الواسعتان... الثقة بالنفس عند الحديث... ارتباطها في أذهان الناس بالمال والثروة... كل ذلك جعلها كأميرات الأساطير القديمة... فهل هي قطر الندى أميرة الدولة الطولونية التي تحاكي بجمالها وسحرها الرواة أم هي شهرزاد أميرة الشرق في حكايا ألف ليلة وليلة؟ هي كل ذلك... إذا ما توقف موكبها أمام أحد الدُور فهذا معناه أنَّ كل شيء معدٌّ للاتفاق، ومعناه أنها تحمل الثروة لأهل الدار. هي ليست من الأقصر بل جاءت منذ أكثر من خمسة عشر عامًا مع أهلها واستقروا هناك. عَملت في إحدى الإدارات الحكومية... لم تنتظر طويلا حتى حققت نجاحًا جعلها ملءَ السمع والبصر في مدينةٍ صغيرةٍ كالأقصر. فُتحت لها خزائنُ الأباطرةَ...

كل ما عليها أنْ تعرِفَ من يريد أن يبيع ومن يريد أن يشتري حتى تبدأ جولاتها التي لم تفشل إحداها على الإطلاق... عرفت طريق البنوك وكونت ثروةً من عدة ملايين في عشرة سنوات... كل بطاقات الائتمان باسم أبيها أو أمها. تزوجت مرةً واحدةً في موطنها الشمالي ولم يدم زواجُها أكثر من عدة أشهر... رأت في الرجل قيدًا أكثر منه زوجًا... لم تنجب... قررت أن لا تبحثُ عن قيد جديد... لن تخضع لسيطرة رجل إن كان غنيًّا، أو لأطماع رجل إن كانَ فقيرًا. يريد الأباطرة التوسع خارج المدينة ويطمحون لبناء فنادقَ ومنتجعات سياحية على الأرض الزراعية المحدودة بطبيعتها... المزارعون الصعايدة يتمسّكون بالأرض... فتبدأ أميرة الأساطير في تجميل البيع لأصحاب الأرض بل وتخطط لهم المستقبل بعد أن ينفُضوا عن أنفسهم الفأسَ والبقرةَ والحمار والمحراث. خطوتان في حياتها صاغتا لها مكانها بين الكبار للأبد. الأولى جاءت حين كان أحد ملوك المال والسياحة في شرق الأقصر يطمع في شراء عدة أفدنة في الغرب ليشيد عليها منتجعًا كبيرًا. الأرض المختارة تملكها عائلاتٌ عديدة ومنها عائلاتٌ قويةٌ غنيةٌ ذات عزوة وليست في حاجة لبيع أرضها... الصفقة في غاية الصعوبة والتعقيد ولكن المقابل أو العمولة المعروضة عليها كانت حلمًا كبيرًا كافيًا لأن تعتزل العمل بعدها إنْ أرادت. طلبت أنْ يمهلَها رجل الأعمال مدةً محددةً واشترطت عليه ألا يتحدث في تلك الفترة عن الصفقة أو المشروع مع أي شخص حتى لو كان أحد أبنائه وقد قبل الرجل. بدأت بدراسة كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة عن العائلات المالكة للأرض. أخيرًا وَجَدَت المفتاح القادر على حل تلك الشفرة المعقدة... كان هذا المفتاح هو الحاج أبو المجد أكبر رؤوس عائلته... وعائلته هي صاحبة الملكية الأكبر في تلك الأراضي وأيضًا صاحبة النفوذ الأقوى. نال الرجلُ قسطًا لا بأس به من العلم. في الستين من عمره وهو

أبٌ لعدد من البنات والأولاد... تزوج معظمهم وبقيَ هو أرملًا.. صيدٌ سهلٌ بلاً شك لامرأة مثلها. وقد كان اللقاءُ الأول عابرًا كما أرادت له... ذهبت مع بعض رجالها لمعاينة الأرض بحجة توصيل بعض الخدمات إليها. قابلته... تحدثت معه... نظراتٌ قليلةٌ منها للرجل كانت كافيةً لأن تحرِّك بداخله ما ظنَّه قد مات منذ زمن طويل. غادرت المكان و لم يغادر وجهُها أو عيناها مخيلَته. بالطبع كانَ يسمع عنها من قبل ولكنها المرة الأولى التي يراها. لم تمض أسابيع حتى كانا يحلمان معًا أو تحلم له أن يصبح كرجال المال والأعمال بدلا من الزراعة... لم يقاوم الرجل طويلًا.. فقد باع الأرض وأقنع العائلات الأخرى بالبيع. بعد أن تمّ لها ما أرادت لم يخدعه ذكاؤه الفطري فقد علم أنه وأنها كانا جزءًا من صفقة البيع... منعه كبرياؤه ومكانتُه بين أهله أن يكشف عمَّا بصدره لأحد... أصبح سرًّا لا يعلمه إلا هو وهي. كان أبو المجد وأرضه وأرض عائلته هو الخطوة الأولى الكبرى في حياتها، أما خُطوتها الثانية فقد تزامنت مع انتفاضة مدينة الأقصر القديمة وتبنِّي حُكامها مشروعًا لتحويلها لمتحف مفتوح. للوصول لتلك الغاية كان المرور فوق رفاة الكثير من البناياتَ الحديثة قدرًا محتومًا... و لم يكن ممكنًا أن يقبل كل أهلها هذا المرور في يسر. أتى الجرَّاحون بتفويضات قالوا أنها ذات شأن لتنفيذ تلك الجراحة المؤلمة... تحسسوا طريقهم في حَذر... علموا أن قَطر الندى قد تختصر مسافات طويلة من الألم لهم وللآخَرين... تفاوضوا معها... ساوموها وساومتهم. وأخيرًا اتفقوا... تساعدهم في مهمتهم ولا يعثّروا صفقاتها الأخرى... أنجزت في شهور ما كان مقدرًا له أن يستغرق سنوات. كانت تُنهي صفقةً لهم وصفقات لها.

***

- "إنَّ هذا يومٌ تاريخيٌّ للمصلحة التي شَرُفت بوجود الحاجة قطر الندى."

الأستاذ محسوب يرحب ترحيبًا حارًّا بالأميرة قطر الندى التي فاجأت الجميع بوجودها مع بعض رجالها لإتمام بعض الأوراق البيروقراطية الخاصة بصفقة من صفقاتها. بعد أن تفحَّص الأوراق، الأستاذ محسوب ينظر ناحية نصرٍ وطيب المشدوهَين برؤية أشهر امرأةٍ في الأقصر ثم يوجه حديثه إليها...

- "لكن يا سيدتي، هذه الأوراق ستستغرق أسبوعًا على الأقل قبل أن تأخذ الموافقاتِ النهائية."

- "أعلم ذلك يا أستاذ محسوب، وأعتقد أن اليوم هو نهاية هذا الأسبوع الذي تتحدث عنه!"

كانت تتحدث بينما تحدِّق النظر في عينيه مباشرةً وانشغلت يداها بإخراج بعض الرُّزم من الأوراق المالية.

ترك الأستاذ محسوب الأوراق جانبًا وامتدت يده إلى المسبحة... تعبث أصابعه المتوترة بحباتها بسرعة وعيناه تنظران إلى رزم المال التي تتكون كل منها من أورق فئة المائة جنيه... قدَّر المبلغَ في مخيلته بما يزيد عن العشرين ألف جنيه مما جعله يحاول ترطيب جوفه بابتلاع ريقه بصعوبة. عنده ثروةٌ تتجاوز عدة ملايين جمعها خلال وجوده وتحكمه في إصدار التراخيص، ولكن هذه الثروةَ هي أزمته الكبرى في حياته فقد ضاعفت من ضعفه أمام المال... غدت لديه شراهةٌ عنيفةٌ لجمع المزيد منه ولم يفكر يومًا متى أو كيف سينفقه. متعته الخاصة جدًّا أن تمتلئ جيوبه

في نهاية اليوم بهذه الأوراق ذات الرائحة النفاذة... يعود لمنزله محبطًا إذا لم يتحصَّل على الحد الأدنى الذي اعتاده... ويشعر بنشوة غير عادية إذا قفزت محصلة اليوم لأكثر من المألوف وتجعله هذه النشوةُ في سعادة ظاهرة تتكشَّف في مداعباته لكل فرد من أسرته، ولكنها تجعله أيضًا يزهدُ فيما عَداها من النشوات فلا يشعرُ برغبة في ممارسة الحب مع زوجته، وتتضاعف أزمتُه إذا وافق يومُ نشوته هذا يومَ الخميس آخر أيام الأسبوع فلا تنال منه زوجته ما اعتادت زوجات الموظفين أخْذَه من أزواجهنَ مساء كل خميس. هو بدوره حاول أنْ يعوِّض زوجته بأن يجعلها تتمتع بنفس النشوة... نشوة المال... فكلما ابتعد عنها أغدقَ عليها منه ومع تكرار محاولاته أن يكون منصفًا لها تحوَّلت لأداة لإنفاق المال. وبقدر شراهته في جمع المال، كانت شراهتها في إنفاقه وتحوَّل هو في عينيها آلةً ليجمع لها هذا المال. ارتضيا هذا التفاهم زمنًا... فلا هي ضاقت بزهده فيها، ولا هو ضاق بإسرافها.

تنظر قطر الندى في عيني الأستاذ محسوب فتقرأ بسهولة ما يجول بخاطره وأحسَّت بما يشعر به في هذه اللحظة الخاطفة؛ لأنهما يشتركان في متعةٍ واحدةٍ وإن زادت هي عليه بعشقها للنفوذ والقوة.

- "ما ردُّك يا أستاذ محسوب؟"

ينظر إليها مبتسمًا وتمتد يده لتوقيع كل الأوراق دون أن يراجع أو يتفحص أيًّا منها كما تقتضي حاجة العمل الاعتيادية.

- "لا أتفق معك يا سيدتي أنَّ اليومَ هو نهاية ذلك الأسبوع... أنا أعتقد أنَّ هذه الأوراقَ كانت من الواجب أن تكون جاهزةً وموقعةً بالأمس... فالأمس كان نهاية ذلك الأسبوع، وإني أعتذر عن التأخير والتقصير!"

ما إنْ سمعت ردَّه، لم تستطع أنْ تقاومَ رغبتها في الضحك... انفجرت ضحكاتُها العالية الفاضحة التي ضاعفت جدرانُ الحجرة وصداها من قوتها وربما يكون قد سمعها كلُ مَن بالمصلحة. امتدَّت يدها بالمال ومعه بطاقةٌ صغيرةٌ مدونٌ بها كل أرقام هواتفها ثم انصرفت مع رجالها.

***

هي خبيرةٌ بانتقاء معاونيها... رَسَمَت بنفسها صفات خاصةً جدًا يجب توافرُها في هؤلاء الأعوان... القدرةُ على المناورةً... المهارةُ في جمع المعلومات... إيجادُ أكثرِ من تبريرِ منطقيٍّ لأي شيء في العالم... الطموحُ بلا سقف... المرونةُ في تغيير مجموعة المفاهيم والقناعات الشخصية... ويأتي عشقُ المال على رأسِ كل تلك الصفات... فهي تؤمن أنَّ مَن يعشق المالَ لا توجد لديه خطوطٌ حمراء ولا يعشق معه شيئًا آخر. لا تثق أنْ يختار لها أحدٌ أيًا من رجالها، بل تنتقي الجميع بنفسها. عند الاختيار تقوم باختبارهم بأحدث الوسائل النفسية المتخصصة. لديها عددٌ من الاختبارات المكتوبة وعلى الشخص المطلوب أنْ يجيب عنها في زمنٍ قياسيٍّ تحدده سَلَفًا بدون أن يفكر في الإجابات لضمان العفويَّة التي تُخرِجُ ما قد يحاول أنْ يُخفيَه العقل البشري. تخبره بالشروط.. . الإجابة بسرعة... لا تفكير... تعطيه الورقة التي لا يتكرر ما فيها من شخص لآخر... إذا ما خالف تلك الشروط فقدَ الفرصة. أما من يجتاز اختبارهَا الأول فيخضع للاختبار العمليِّ في الولاء لها وإنجاز بعض المهمات غيرِ التقليدية... مَن يصمُد للنهاية تُغدق عليه المال وتتوقف قيمة الإغداقَ على مقدار انجازه فيما تكلفه به. و لم تنسَ قناعَ الرهبة الذي يحجُب وجهَ الأنثى وضعفَها عن رجالها... لابد أن يَخشى رجالُها غضبَها...

غير مسموح لأحدهم أنْ يعاملها كأنثى بل كرئيسة وصاحبة فضل وولية النعَم. لم ترفَع هذا القناع عن وجهها إلا عند الضرورة كما فعلت مع أبي المَجد ثم ما لبثت أنْ ارتدته بسرعة شديدة بعد أن أتمت صفقتها... وأول من أرته هذا القناع كان أبو المجد نفَسه. تلْك الصرامةُ في التفاصيل الدقيقة في اختيار من يعمل معها جعل عددهم محدودًا. تدعهم ينعمون بحياتهم ويركنون إلى الراحة حتى إذا ما صدر الأمر بالتحرك أصبحوا خليةَ نحلٍ تتحرك في اتجاهات شتّى تصبُّ جميعها في اتجاه إتمام المهمة.

حين رأت الأستاذ محسوب وتعاملت معه في مكتبه وأحسّت ردودَ أفعاله المحبوسَة في عينيه حين رأى المال، انتفضت حواسُّها كخبيرة في التقاط الأعوان... قررت أن تُعفيه من الخطوات والاختباراتَ المكتوبة... هو أكبر من تلك المرحلة الأولية... لقد اجتاز ذلك منذ زمن وقد تعلّمت أن تُنزل الناس منازلهم وتحترم قدْرَهم. بدا لها صاحب غايةَ محددة يسير إليها بوضوح كما أنّ وجوده بهذه المصلحة الحكومية قدْ أتاح لَه نسْجَ خيوط المصالح الأخطبوطية مع المصالح الأخرى.. فهو بلا شك صيدٌ ثمينٌ ولابد أن يحدث اتحادٌ بين خيوطه وخيوطها للوصول لتلك الدرجة من الكمال في الأداء معًا. كما أنّ عمره الذي يفوق عمرها يضفي عليه وقارًا قد تحتاجه في تعاملها مع بعض العائلات في الأقصر. اتخذت قرارها وانتظرت حتى يهاتفها... توقّعت ألا تنتظر طويلًا و لم يخيِّب رجاءها. هاتفها واتفقا على كل التفاصيل... لن يستقيل حتى لا يخسر الخيط الرفيع الذي يربطه بخاتم النسر... ستقنع منه بالعمل لعدة ساعات كل يوم أو عند احتياجها إليه. لم تُهنه أو تجرحه في نشوته الكبرى بأنْ تعرِض عليهِ مرتبًا شهريًا بل سيعمل مقابل نسبة أو عمولة نظير إتمام مهامه المحددة... وشعر الأستاذ محسوب باقتراب ما ينتظره منذ زمن...

تلك الوثبة الكبرى التي تجعله ينتقل من الصفوف الوسطى في المجتمع الأقصري إلى مجموعة الصفوة وأباطرة المال والأعمال ولكنه يعلم أن تلك الوثبة لابد وأن تكون بمباركة من أميرة الأساطير قطر الندى... وهي على قَدر ثقتها في قدراته على المناورة والإنجاز كان لديها يقينٌ أنه يؤمن بنفس قانونها في الحياة... لا وجودَ للحد الأدنى من القناعة... الطموح بلا سقفٍ وبلا نظرٍ أسفل الأقدام حتى لا ترى ضحاياك.

# النمل الأبيض

- "اسمي فيونا من انجلترا."

- "وأنا اسمى طايع."

حاولت المرأة الإنجليزية أن تنطق اسمه بصعوبة بالغة وبطريقة مضحكة وقد أثارتها يدُ طايع المتمرّسة التي أخذت تمَسح عَلى كتفيهاً وظهرهاً. لم تقوَ العجوز على المقاومة فألقت بجسدها على أحد المقاعد في محل طايع الذي يملكه أمام إحدى مزاراتِ غرب الأقصر. قطَعُ الذهبِ الضخمةُ الثقيلةُ تزين رقبتها ويديها مما أثار لُعابَ طايع فقرر أَن يختبر كلَ أسلحته في مغازلة العجائز وبيع الوهم لهن حتى يُخرجن من حقائبهن الكثيرَ من المال. أخذت العجوز تقترب بجسدها الممتلئ من جسد طايع الذي تنبعث منه رائحة العَرَق الرجولي والذى يبدو أنه قد أثارها أكثر فحاولت أنْ تقترب أكثر لتشجعه على المزيد... كلما ظنّت أنها ستنال هذا المزيدَ يبتعد عنها فجأةً ويعرض عليها قطعةً من بضاعته قد تكون إحدى التماثيل أو لوحةً حجريةً منقوشةً فتسأله عنِ السعر وتهزٌ رأسها بالموافقة... يقوم أحد الصبية الصغار العاملين معه بلَفٍ القطعة تلو القطعة

بأوراق الصحف لتحميها من الكسر ثم يغلِّفها بكيس من البلاستيك. اتفقت أن تراه مساءً ثم دفعت ثمن ما اشترته مضاعفًا كما أغدقت في دفع البقشيش لكل الصبية الصغار في المحل. أراد طايع أن يطمئن على خروج فريسته سالمةً أي لا ينافسه فيها أحد غرمائه في المحلات المجاورة فرافقها حتى صالة الانتظار حيث استقلت سيارة الشركة السياحية المؤجَّرة لها وغادرت وهي تلوِّح له باللقاء. في طريق عودته إلى محله ألقى نظرةً عابرةً على المحلات المجاورة. لا جديدَ فيما اعتاد أن يراه منذ عقود... امرأةٌ تهرول خارجةً من إحدى المحلات بعد التحرش بها ربما بفظاظة مما أفزعها... بعض ألفاظ السباب الضالة هنا وهناك بلغات مختلفة... عربي البائع العجوز مازال يتحرَّش بفتاة شقراء صغيرة لم تتجاوز الخامسةَ عشرة... سنوات و لم يتغير الرجل فهو يضعف أمام الشعر الأصفر والوجوه الملائكية والسيقان الغضة العارية... عادل ومعه أحد الدراديم وهو يريه تماثيل المعبود المصري القديم (مين) إله الفحولة والخصوبة الذي يقف متفاخرًا بعضوه المنتصب أمامه... وهو المعبودَ الذي يتفاخر به المصريون العاملون في السياحة ويدَّعون أنهم قد ورثوا تلك الفحولة منه. اعتاد طايع أن يرى تلك المشاهد منذ سنوات ولم يملَّها لأنها تُشعِرَه أنه الأفضل بينهم جميعًا... فهو يعرف كيف يتعامل مع النساء بنعومة لا تجعلهنَّ ينفرنَ منه وبمسحة من الخشونة الرجولية تذيبهنَّ بين يديه... يتمنى أنْ يستمر الآخرون في فظاظتهم حتى يستمر هو في تميُّزه... وهو لا يعطي لإحداهنَّ شيئًا إلا بقدر ما يأخذ منهن... يعرف كيف يتصيَّد الثريات الجائعات منهن للحياة فيداعب الأحاسيس والأجساد حتى يحصل منهن على أكثر ما يستطيعه تحت غطاء شراء التماثيل التي غالبًا ما يتركنَها خلفهنَّ حين يغادرنَ لبلادهن للتخلص من أوزان حقائب السفر الزائدة.

– "لابد من القيلولة قليلًا حتى أقوى على السهر مع هذه الشمطاء!"

هكذا حدَّث نفسه حين عاد لمحله... وبينما يتأهَّب للمغادرة إذا بحسَّان ومعه زوجته المزيَّفة يُلقيان عليه التحيّة ويقتربان منه... يتبادل معهما الحوار ويدعوهما للمشاركة في سهرته الخاصة هذه الليلة.

***

امتلأ المكان بزجاجات البيرة الفارغةِ وبقايا السجائر المحشوَّة بالحشيش والبانجو... اختلط الهواءُ الجافُ القادمُ من الجبل الغربي والممتزجُ برائحة المحاصيل الزراعية برائحة المخدرات والخمور التي تعبِّق أرجاء مصنع الألبستر والتي تنبعثِ من أفواه الأجساد الأربعة الممدَّدة على الكليمات الصعيدية التي غطَّت أرضية المصنع... وبينِ اليقظة والنوم أوَ اللاوعي انطلقت فيونا في الحديث دون أنْ ينشغلَ ذهنُها إن كان هناك منهم من لايزال يتمتع بالإدراك والإنصات أم لا.

– "فلتذهب إنجلترا وصقيعُها وغيومُها وضبابُها إلى الجحيم... أنا لن أعودَ إلى هناك مرةً أخرى... أعود لمن؟ لابنتي؟... تلك العاهرة التي لا تأتي لتراني إلا لتمتصَّ ثروتي وتعطيها لهذا الفاشل... نصف ساعة فقط تفصلني عنها ولا تزورني إلا كل بضعة أشهر... هذا ليس عدلًا... أليس كذلك يا تابع؟!"

– "نعم كذلك أيتها المرأة العجوز!"

– "أنا أعلم أني عجوزٌ وأنكم أيها المصريون أفَّاقون كذَّابون... تغازلونني لتأخذوا أموالي! ولكنني سعيدةٌ بذلك... وأعشقُ كَذِبَكم

هذا... كَذبُكم هذا يشعرني بالحياة... فهيا أيها الكذَّابُ، أشعرني بالحياة... أخبرني أني جميلةٌ وجسدي مازال مثيرا!"

– "وأنتِ هيا ادفعي ثمن أكاذيبي!"

كانت فيونا مستعدةً لتلك اللحظة، فما إنْ طلب منها طايع ذلك حتى أخرجت حافظةً صغيرةً من حقيبة يدها ممتلئةً عن آخرها بالأوراق المالية الإنجليزية... أخذها طايع قائلًا "أنا أعشق الإنجليزيات!"

تناسيا حسَّان وآلان... وبينما يهمُّ بالانقضاض عليها إذا بالشعر المستعار يسقط عن رأس آلان... فتتسعُ عينا فيونا في دهشة لم تستغرق سوى ثوان معدودة انفجرت بعدها في نوبة من الضحك الهستيري... شاركها طايع في الضحك وصرخت وهي تتهاوى بين ذراعيه...

– "يبدو أن رجال إنجلترا أيضًا يبحثون عن شمس مصر الدافئة!"

***

في اليوم التالي كان الأربعةُ جالسين على أحد مقاهي الأقصر. قصَّت فيونا لهم قصتها منذ وفاة زوجها وحصولها على ثروته التي خلفها وراءه... هجرتها ابنتُها بعد أنْ فقدت الأمل في أخذ المزيد من أموالها وتجمَّدت حياتها... كم كان يمضي وقتٌ طويل قد يتعدَّى الشهور دون أن يهاتفَها أحدٌ أو يطرق بابها أحد. أصبحت تخشى الاقترابَ من الناس... الليلَ الطويلَ الباردَ الموحش... طَرْقَ المطر لنوافذها المغلقة... هجومَ الآلام المفاجئة التي ألهبت مفاصل قدميها... وهاجسًا أصبح زائرًا دائمًا لها في منامها أنها ستموت وحيدةً ولن يشعرَ بموتها أحد

كما لم يشعرْ بحياتها أحد. احتوتها رغبةٌ عارمةٌ في تعجل النهاية حتى شاهدت أخيرًا أحدَ الاعلانات السياحية عن مصر وتذكرت حديثَ بعض الصديقات ممن سبقنَها إلى هنا عن الشمس والدفء فقررت أنْ تأتي. في المرة الأولى شعرت أنَّ لهذه البلاد سرًا خاصًا يمكن أن يسمى سرُّ الحياة. كان غامضًا لها ولكنها بعد أنْ كررت زياراتها علمتْ ما هو هذا السر... فمنذ أنْ تطأ قدمُها أرض المطار تسمعُ آذانُهَا عبارات الغزل الذي يكون مهذَّبًا حذرًا في معظمه وفاضحًا أحيانًا، وتنهال عليها عُروض الزواج كفتاة في العشرين من عمرها. رجالُ البلاد الحارة يعشقون النساء وإنْ تدثَّر الجميعُ بغطاء زاه من التحفظ الكاذب والحتميّ لاستمرار ذكورية المجتمع... يتمزَّقُ هذا الغطاءُ وينكشفُ الحجابُ بنصف نظرة من عينين خضراوين أو زرقاوين أو برؤية ساق أو نهد أبيض نصف عارٍ يتحرَّقُ شوقًا لدفء الشرق. كان هذا بعثًا جديدًا لها فاعتقدتْ أنها ماتزال فاتنةً جذابةً ولكنها عندما تنظر في المرآة ترى الحقيقةَ القاسيةَ الفظةَ... وجهًا متجعدًا وجسدًا مترهلًا وشعرًا متساقطًا يكشف أكثر مما يستر من جلد رأسها... فهل تصدِّق المرآةَ أمْ المصريين؟ حَزَمَتْ أمرها وقررت أنْ تَحيا هذا الوهمَ وحتى بعد أنْ علمتْ أنّ هؤلاء المغازلين إنما هم بائعون... وبضاعتُهم الشبابُ ورحيقُ الحياة نظيرَ المال أو السفر. تيقّنت من هذا واختارت أن تشتري هذا الحُلُمَ الجميلَ ولكنها ستشتريه مقابل المال وليس السفر فهي لا تريد أن تعود مرةً أخرى إلى الضباب، وكان هذا هو عَرضُها لطايع... تعيش هنا في الأقصر وتتزوَّجه.

– "لا زواجَ يا فيونا... ولكني ربما أساعدك في شراء منزلٍ أو أرضٍ ونبني لك منزلًا في الغرب إذا كنتِ مستعدةً لدفع الثمن المناسب."

- "نعم أنا مستعدةٌ وأفضِّل أنْ يكون منزلًا صغيرًا جاهزًا وبه حديقةٌ صغيرة."

- "إلى أنْ يتحقق هذا سوف تقيمين في أحد فنادق الغرب حتى تكوني قريبةً منا أيضًا... وعندما تشتاقين لليلةٍ أخرى... فقط أخبريني!"

قال ذلك مُشيرًا بسبابته وإبهامه في إشارةٍ واضحة للمال. انصرفت فيونا ومعها آلان بينما بقيَ حسَّان وطايع يناقشان الأمر ويفكران في طريقةٍ للقيام بصفقةٍ كبيرةٍ لفيونا.

- "يبدو أنَّ الأمور تسير كما نريد، فقد كنتُ أتحدث مع همام منذ أيام عن أهم الأعمال التي يمكن أن نقفزَ من خلالها قفزةً كبيرةً وأخبرَني أن سمسرة الأراضي والعقارات في الأقصر هي أفضل طرق الثراء."

- "هل تعرف يا حسَّان إنْ كان هناك أحدٌ في الغرب يريد أو يقبل أن يبيع أرضه أو منزله؟"

- "لا لن نبحثَ عن البائع بأنفسنا."

- "ماذا تقصد؟"

- "يجب أنْ تكون هذه فقط البداية... الباب الذي ندخل منه إلى العالم الأكبر والذي لن ندخله إلا عن طريق قطر الندى."

منذ حديث همام معه وحسَّان يحلم بالدخول إلى عالم تلك المرأة الأسطورية وها قد واتته الفرصة. فهي وإنْ كانت تسيطرُ على هذا العالم في مجتمع المال الأقصري إلا أنها لا تملك كل الخيوط في جانبٍ آخرٍ من السوق حين يكون أحد الأوربيين من الراغبين في الشراء.. فلماذا لا

يكون هناك اتفاقٌ بينهما؟. طايع وحسّان يمكنهما العثور على الراغبين في الشراء بأسعارٍ مضاعفة من مختلف الجنسيات الأوروبية... وقطر الندى لديها قائمةٌ طويلةٌ من الرّاغبين في البيع أو ممن يمكنها إقناعهم بالبيع.

***

سعيٌ محمومٌ لجذب رؤوس الأموال والاستثمار إلى الجنوب... تسهيلاتٌ في تملك الأراضي والبناء والإقامة للأجانب... الشتاءُ الدافئُ الرائع والشمسُ المشرقة... الصبية الهائمون بحثًا عن مرة عيش أو دردوم... جنونُ عشق الآثار المصرية والبحث الهستيري عنها وازدهارُ تجارة التاريخ في الأقصر... خُطط المنظمات الدولية لجعل أجزاء من الأقصر خاليةً من المصريين بعد عقدين أو ثلاثة من الزمان... استفاقَ أهل الأقصر على هذه الوَمَضات وعلى غيرها ليكتشفوا أنَّ مدينتَهم تُختطف منهم على حين غرةٍ بشرقها وغربها. ففي الشرق استحالت أحياءٌ كاملةٌ كحي النيروز إلى مستعمرات غربية مغلقة على ساكنيها الغربيين وغدا لهم مجتمعٌ خاصٌ بهم وحمايةٌ خاصةٌ لهم. أما في الغرب وفي قرية البُعيرات مثلًا تم شراءُ قطع الأراضي الملاصقة للنهر قطعةً وراء الأخرى حتى تأسّست هناك مستوطنةٌ صغيرةٌ للأجانب بقصورهم التي تلاصق البيوتَ الريفيةَ لفقراء القرية. ومن عَجَب القول أنَّ هذه القرية بعينها اشتهرت بوجود الكثير من حَفَظة القرآن بها... والمسجد الذي تنشطُ به حركةُ حفظ القرآن لا يبعد سوى عشرات الأمتار عن المستوطنة الغربية بكل ما فيها من أنماط حياة تتناقض مع ما يألفه أهل القرية. في سنوات قليلة ولدَ ونما في الأقصر هذا المجتمعُ الجديد الذي يضمُّ هؤلاء الغربيين بمختلف أطيافهم... لهم نوادٍ ومقاهٍ خاصةٌ بهم وينعمون بحفاوة أهل

الدار من إصباغ الحماية الخاصة عليهم والتمتع بفروق العملات بين نقود بلادهم وبين العملة المحلية المصرية فيعيشون في الأقصر في ثراء فاحش بما لا يستطيعون به عيش الكفاف في أوروبا. بل وإن الكثير منهم قرر إقامة بعض المشروعات التجارية الخاصة بهم ومن غرائب الأمور أن سرعة إنجاز أوراقهم الروتينية مقارنة بمثيلاتها الخاصة بغيرهم من المصريين تثير السخرية. في المساء يتجمعون في جلسات خاصة بهم يقصون حصاد يومهم من المواقف التي صادفتهم سواء في الأقصر أو خارجها... ولا تخلو قصة من التهكم اللاذع على المصريين الذين يطلقون عليهم اسم المحليين. وكما جاءوا بمالهم فلم ينسوا أن يصطحبوا معهم الشيزوفرينيا الغربية المتحضرة... فلا تمل النساء من سرد قصص التحرش الذي تعرضن له في شوارع وحوانيت الأقصر ولكنهن لا يجدن حرجًا في إنهاك أقدامهن سيرًا في نفس الشوارع بحثًا عن شاب صغير يعيد إليهن سنوات عمرهن المنصرمة. والرجال يحكون عن الغش الذي يتعرضون له في معاملاتهم التجارية مع المحليين، ولكنهم يبدعون في طرق التهرب من الضرائب التي من المفترض أن يدفعوها عن أنشطتهم ومشاريعهم. يتحدثون بحرقة عن احترام الحرية الشخصية والخصوصية في الغرب التي يفتقدها المصريون الفضوليون ولكنهم لا يستنكفون عن التنطع والتطفل في الشوارع الجانبية الصغيرة ومحاولة التقاط الصور للبسطاء والفقراء وهم يمارسون طقوس حياتهم اليومية. يحاولون باستماتة أن يعلموا المحليين فضيلة التسامح وكيف يتقبلون الآخرين كما هم... ولكنهم بمجرد أن يبدأ سامرهم الذي يخلو من وجود المصريين يخرجون ما في بطونهم من آراء ناقدة ساخرة لملبس ومأكل ومشرب المحليين وتقاليدهم وأدق تفاصيل حياتهم !

***

زيارةٌ مفاجئةٌ يقوم بها طايع لمكتب الأستاذ محسوب. يعرف طيب أنَّ تلك الحفاوةَ التي لاقاها طايع من رئيسه لابد وأنَّ وراءها سرًّا ما، وبمعرفته بالأستاذ محسوب فقد أدرك أنه سرٌّ مريب. ألقى طايع تحيةً عابرةً لكلٍ من نصرٍ وطيب ثم خرج مع الأستاذ محسوب... ظلا يتهامسان في الممر الخارجيِّ أمام المكتب وطيب يراهما بوضوح حتى رأى طايع يدسُّ مظروفًا منتفخًا في يد الأستاذ محسوب، وما لبثَ هذا المظروف أنْ انتقل بسرعة إلى أحد جيوبه الكثيرة... طايع يغادر بينما يعود الأستاذ محسوب للمكتَب منتشيًا.

- "أراك متهللًا... فهل هناك رزقٌ جديد؟"

- "نعم، ولكنه لا يخصُّ المصلحة هنا ولا يخصُّكَ يا نصر. فلا تدس أنفك فيما لا يُعنيك."

- "أنا تلميذُك النجيب... وأتمنى أنْ أقومَ بأي عملٍ تكلفني به... لا أريد أنْ أفقد أي فرصةٍ يمكنُني منها أنْ أتعلم منك."

- "ليس الآن يا نصر... وإنْ سنحت تلك الفرصة فلن أضنَّ بها عليك."

يدير محسوب الحوارَ مع نصر دون أن يلتفتَ إليه فذهنُه مشغولٌ بما طلبه منه طايع... أن يجمعه لقاءٌ بقطر الندى وحسَّان... لم يكن الأمر عسيرًا عليه ولكن ما يشغله ما هو هذا الأمر الذي يدفع طايع من أجله هذا المبلغ من المال... فقط ليقابل قطر الندى؟ عقله يخبره أنها مصلحةٌ كبرى... وما علاقة حسَّان بالأمر؟ يعشق هذا النوع من التفكير الذي يقوم فيه بإجراء اختبارٍ ذاتيٍّ لذكائه. مساراتٌ متباعدةٌ في عقله تومِض

ثم تنطفئ... صفحاتٌ متناثرةٌ تخصُّ الأسماءَ الثلاثة... كلٌّ واحدة منها تحوي كلَّ ما يعرفه عن كل منهم. الصفحةُ الخاصةُ بقطر الندى بهاً كلماتٌ قليلةٌ... امرأةٌ... غيرُ متزوجة... بيعٌ... شراءٌ... أرضٌ. أما ما يخصُّ طايع فهو... رجلٌ... متزوجٌ... محلاتٌ... أرضٌ زراعية. وماذا عن حسَّان؟ متزوجٌ... مشروعاتٌ... أرضٌ. الموضوع لا يتعلق بزواج أو طلاق ولن يلجأ لي طايع من أجل هذا. ربما يرغبُ طايع في بيع أرضَه أو أنَّ حسَّان يرغب في شراء أرضٍ بمال زوجته... نعم هذا هو المنطق... إنَّ في الأمر صفقةً!

***

في المساء كان اللقاء الذي طلبه طايع. في أحد فنادق الأقصر كان طايع ومعه حسَّان يعرضان عليها خطتهما للتعاون ومع العرض فقد قدما لها طلب فيونا للشراء هديةً لها وتعبيرًا عن الجدية في المستقبل وقد قَبِلتْ عرضَهما وهديتَهما.

– "لقد أخبرني الأستاذ محسوب عنك يا حسَّان... ولكنك مختلفٌ عن أخيك طيب... تبدو لي أكثر ذكاءً ونجاحًا منه."

– "طيب مثلُ أبي... يهوى القناعةَ ويعقِّد الحياةَ على نفسه وعلى الآخرين."

لم يطل اللقاء أكثرَ من ساعةٍ لمناقشة تفاصيل التفاهم المشترك كما اتفقوا على النسب الخاصة بكلٍّ منهم ثم انصرف حسَّان وطايع وقد غَمَرَتهما متعةٌ غيرُ مسبوقة... فالخطوة الأولى بدأت. على طايع أن يتصيَّد الراغبات أو الراغبين في شراء أرضٍ في الأقصر مستخدمًا خِبرات

السنين الطويلة في معرفة تفاصيل حياة من يدخل إحدى محلاته خلال حوار عابر قد يُخرج كلمةً أو عبارةً تشي بضيق من يحدثه بحياته في الوطن الأم لكي يقترح فكرة التغيير... تغيير المنزل والناس والوطن... وتكون الأقصر هي الوطن البديل... كان يحدد هدفه بكل دقة... العمرُ المتقدم... القادمون والقادمات فرادى بلا عائلة أو أنيس... وقبل ذلك وأهم منه الحالة المادية التي يعرفها بسهولة إذا عرَف جنسية من يحادث ومهنته. أما حسّان فقد أطلق مساعده المقرَّبَ والطموحَ همام الذي أطلق بدوره معاونيه الصغار في محلات العاديات في شرق الأقصر كما لم ينسَ أن يستخدم علاقات آلان في إنجلترا ليمهِّد لأقرانه الطريقَ ليفعلوا مثل ما فعل... وفي النهاية تتجمَّع كل الخيوط في أيدي قطر الندى التي تحتفظ بحصر لكل شبر من الأرض يمكن أن يُباع يومًا ما. لا يمر أسبوع دون إتمام صفقة بيع والبدء في بناء قصر جديد في الغرب لأحد أو إحدى الأوروبيات الهاربات من صقيع بلادهن... وأيضًا لا يمر أسبوع دون قضم قطعة أرض من تحت أقدام أهل الأقصر.

# القبيلة

- "نحن عربٌ وأبناء عرب... وجَدُّنا من أشرف قبائل العرب."

طايع يتفاخر بأصل قبيلته العربية في إحدى مجالس السَّمَر التي يهواها مع بعض جيرانه... وتلك لم تكن عادةً خاصةً به، بل يتباهى بذلك جُل أبناء الصعيد... يقتنون الكتب العربية القديمة الباحثة في الأصل والأنساب بحثًا عن دم عربيٍّ يجرى في العروق عن طريق القبائل التي قد أتت بعد الفتح العرَّبي لمصر واستوطنت الجنوب. في غرب الأقصر يقسم الناس أنفسهم إلى ما يشبه بُطون العرب ويطلقون عليها بَدَنات ومفردها بَدَنَة وكل بدنة تظلل عددًا كبيرًا من العائلات... وتحتفظ كل بدنة بدار مناسبات تسمى الديوان يقيم فيه أفرادها أحيانا عدة أيام لتلقي واجب العزاء وإقامة مجالس الصلح العرفية. في كل بيت هناك أوراق قديمةٌ صفراء بفعل الزمن يُدوِّن فيها نسَبُ كل عائلة... أما سر الأسرار وقدس الأقداس فهي ما يسمى كراسة الجرْد التي يحتفظ بها كبير قومه وهي أثمن ما تقتنيه العائلة. عند الزواج وفي حفلات السمر وعند أي انتخاباتٍ صَغُرت أو كبُرت يرتفع اسم العائلة والقبيلة أو البدنة لتتضاءل

بجانبها أي قيمة أخرى حتى لو كانت قيمة العلم أو الدين فينتخب الناس ابنَ القبيلة دون النظر إلى ما يحمله في رأسه من أفكار وطموحات وحتى قبل أن يسمعوا منه... وترضى العائلة بابن القبيلة زوجًا دون النظر إلى رغبة العروس أو تكافؤ العقول أو تقارب القلوب وتباعدها... ولا يجد الأب غضاضةً أن تذبُل ابنته وتصبح فرعًا يابسًا إذا لم يجد من أبناء العمومة زوجًا لها. وحفلات السمر لا ينقصها سوى مُعلقات الشعر العربي لتصبح كدار ندوة قريش... اسم القبيلة أولًا وفوق كل شيء. فماذا عن إرث القبيلة وتقاليدها وما بقى منها؟ لم يبقَ غير الحفاظ على نقاء الدم. ولا يجد المتفاخرون حرجًا في التنكر للقبيلة العربية إذا ما فتحوا حوانيتهم ودار الحوار مع القادمات من أوروبا... ساعتها يصبح ابنُ القبيلة حفيدًا للفراعنة... بُناة الحضارة وخليفةً للفرعون الأعظم رمسيس الثاني رمز الفحولة في خيال الغربيات. بين سجالاته مع رفاقه أصحاب الحوانيت المجاورة وحواراته مع فريساته الغربيات، يبدو طايع كالحاوي الماهر الذي يُخفي ويُظهر من ألاعيبه وخدعه ما يشاء وقتما يشاء... فحين الفخر هو عربيٌّ ابن عربي وشريف ابن شريف، وحين الصيد فهو مصريٌّ ابن مصري وحفيد الفرعون الأعظم... يحتفظ تحت جلبابه الصعيدي بسر الحياة وتُلهب لمساتُ يديه القويتين مشاعر النساء وغرائزهن.

***

بعد أنْ عاد الشيخ عزب من صلاة العشاء، وجد ابنه طيب في انتظاره... يشعر أن الكلام يتحشرج على شفتيه ويتردد في التمرد والخروج أو العودة إلى مأمنه... يشعر طيب أن سنوات عمره تنسل منه

وتخشى مروة أن يفاجأها أبوها بقرار زواج لن تستطيع رفضه.. . اتفقا أنْ يواجها الأمر المحتوم فربما يلين قلب طايع خاصةً وهي تراه مشغولًا بأعماله وصفقاته. يرى الشيخ عزب في طايع رجلًا فاسدًا، ولكن مروة تستأثر في قلبه بمكانةٍ خاصة ويتمنى أن تصبح زوجةً لابنه.

– "أنا أفكر في الزواج يا أبي."

– "مباركٌ إن شاء الله، ومن العروس؟"

– "... مروة."

توقع طيب أنَّ اختياره ربما لا يجد قبولًا لدى أبيه، فهو يشعر بما في صدره تجاه طايع. ولكنه لمح وجه أبيه مبتسمًا في وقارٍ وطمأنينةٍ وإن كان يشوبه بعض التوتر.

– "أعلم يا أبي أنك لا تطمئن في التعامل مع طايع، ولكن مروة مثلنا وقد كبرت على يدي أمي ويديك... أنا لا أريد أنْ أثقل عليك. .."

– "اختيارٌ موفقٌ يا بني... لا أتمنى خيرًا منها لك، وليعينُنا الله فيما أنت قادمٌ عليه... أخبِر طايع أننا نود مقابلته غدًا بعد صلاة المغرب... لا بعد صلاة العشاء حتى يكون قد عاد لمنزله... ولكن لا تخبره بالأمر حتى أتحدث معه."

يتوقع الشيخ عزب مقدمًا ما سيسمعه من طايع... الرجل الذي يعشق المال الكثير لابد أن يفكر في زوج آخر لابنته. لن يقبل مصاهرتهم بسهولة لأنهم لا يملكون من المال غير قطعة أرض زراعية ووظيفة طيب... لن يكون في هذا الإغراء الكافي له... لكنَّ مروة نبْتَ طيب ويعلم أن في

قلب ابنه هوى لها منذ الصغر... وكلاهما يستحق منه أن يتحمل عناء هذا اللقاء.

***

همس الوشاةُ في أذن أم السعد بما يدور بين ابنتها وطيب فجُنَّ جنونها وانفجرت في وجه ابنتها في ثورةٍ هوجاء... لا سرَّ في الغرب وحتمًا أن كثيرين قد عرفوا وستَلوكُ الألسنة سيرتهم. لن تقوَ على كبح جِماح غضب زوجها حين تلتقط أذنُه الخبر.

– "لو أعرف أنَّ العَلام سيفسدكِ ما كنتُ وافقتُ على ذهابك للجامعة."

– "لم أقترف خطيئةً... طيب يريد أنْ يتزوجني."

– "منذ متى تعشق بناتُ الصعيد قبل الزواج؟"

– "لقد تغير الزمن... وبنات الصعيد ككل البنات يُخفين تحت العباءات السوداء ما هو أكثر من العشق... وهبَ الله للبنات حقَّ الاختيار، فلماذا تريدون أنْ تسلبوه منا؟"

– "ليس عندنا في الصعِيد... يا بنتي هنا البنت تتزوج من يختاره أبوها وأعمامُها والتي تشطُّ تُقطع رقبتُها."

– "هذا الصنم الذي نعبده... ألا تأخذه بنا رحمةٌ؟"

– "صَنم؟!"

- "نعم صنمٌ اسمه الصعيد صنعه أجدادُنا ووجبَت علينا عبادتُه... ديننا اشترط موافقة البنت على الزواج أي أنه أعطاها حقَّ الاختيار ولكنَّ صنمنا يعترض ونحن نُطيعه... قال الدين إذا جاءكم مَن ترضون دينَه أي أخلاقَه فزوِّجوه ولكنَّ صنمنا قال من ترضَون مالَه وحسَبه ونسَبه وكلنا نطيعه."

بينما تُطلق مروة سهامَها، افترشتْ أمها الأرضَ واضعةً يديها فوق رأسها وتنظر للأرض... تشعر برهبة ما قد يحدث لها ولابنتها. فالعارُ يلاحق كل نساء الدار... والعقاب الذي يطال البنت التي عشقتْ يكون أقسى مع الأم التي ربَّتْ... والأم تلعن العَلامِ الذي أنطقَ البنَتَ وجرَّأها على البَوح بما أخفته نساءُ الصعيد زمنًا طويلًا. تفكر في مصيرها قبل مصير ابنتهَا... كيف ستواجه عاصفةَ طايع عندما يعلم... كيف ستواجه نساء القرية عندما يعرفنَ. طايع صعب المراس ولن يرضَ بتزويجها من طيب... ولنْ يتزوجهاَ أحدٌ بعد فضيحة العشق إلا طامعٌ في مال أبيها.

المجتمع الجنوبيُّ قاسٍ في عقابه.. مُزايدٌ في إعلان التمسك بقشور قيَمه الظاهرية واجتناب محرّماته التي ابتدعها لنفسه... وذكوريٌّ في عَقيدته فيطلق العَنان للرجل ويخنق المرأة. في أيام الجمع يعتلي شباب الشيوخ منابر المساجد والزوايا الصغيرة المشيدة من الطوب اللبن في القرى الصغيرة... ولا تخلو خطبة جمعة من الحديث عن صواحبَ يوسف... النساء ويتعلم الطفل الصغير قبل أنَ يكتب اسمه أنَّ المرأة وإنْ كانت راكعةً لأحدَ فلتركعْ لزوجها. ولكنَّ نفس هذا المجتمع يغضُّ الطرف عن أحكام الدينَ الأخرى... فالسرقة والرشوة رزقٌ ومعايش... وشُرب الخمر وتعاطي الحشيش والبانجو عَبث شبابٍ لا يخفض من قامة من يقوم به... أخذ الصعيد من الدين ما يهواه ويتفقَ مع تعاليم الصنم الذي تحدثت عنه

مروة واختصره في لباس المرأة وخضوعها... بينما احتفى بقتل النفس بغير حقٍ سوى الدفاع عن كبرياء زائفٍ والتِّيه بعزوةٍ جوفاء.

***

تقدم الشيخ عزب إلى غرفة الضيوف في منزل طايع... تَثقُل القدم وتختنق الأنف برائحة الدخان... وتعثر الذاكرة المرهقة على بقايا متناثرة هنا وهناك مرَّ عليها سنوات طويلة. مَن شابه أباه فما ظلم... ورِثَ طايعٌ عنِ أبيه حبَّ النساء والزواج بالكثيرات منهن ولكنه اختلف عَن أبيه أنه فضَّل أجساد النساء المزينة بالذهب ورفض أن يتزوج إحداهن... اكتفى بأم السعد زوجةً... ويأخذ ما يريد بلا قيود. ورِث عن أبيه حبَّ التفاخر بعَراقة الأصل وتميُّز الدمِ ولكنه ورث أيضاً خلْط هذا الدم بكل ما تطاله يداه مما يُذهب عنه إدراكه... رغبةٌ محمومةٌ في الهروب من اللاشيء. تعلم أم السعد عن زوجها كل خصاله و لم تعتقد يومًا أنها تملك رفاهية الاعتراض على إحداهن وهي التي لَم تكن تحلم بفتى فتيان القرنة زوجًا لها. لم تكن فقيرةً ولكنها كانت أقل مالًا.. كانت جميلةً لكنها لم تكن أجمل فتيات القرنة. كانت له فلسفتُه الخاصة في اختيارها... أنْ تكون هي من تسعى لإرضائه. عليها أن تبذل الكثير لتصلَ لهذا الإرضاء فتنعَمَ بفتوته وخبرته في معاملة النساء ولو للحظات قليلة. مضت السنوات وخَفَتَت رغباتها مع إهاناته المتكررة لها ثم أخيرًا انتحرتْ تلك الرغباتُ تحت أقدام امرأةٍ إنجليزية أحضرها للمنزل ليقهرَها... وزادها قهرًا أنه لم يكن مخمورًا.

تذكَّر الشيخ عزب أمَّ السعد في صِباها حينٍ كانت تأتي إلى زوجته شاكيةً باكيةً... ومع انسلال الحياة من شرايينها قلَّتْ الزيارات وانعدمت الشكاوى وجفَّت الدموع. فرح الزوجان اعتقادًا بانصلاح الحال و لم

يدريا أنَّ المرأةَ بداخلها قد ماتت منذ تلك الليلة... وما بقيَ على قيد الحياة هو الأم... وها هي الأم ستواجه نفس مصير الزوجة إذا ما علم أهل القرنة بمروة وقصتها مع طيب.

يخنق الضيقُ طايع ويزداد اختناقه مع الكلمات القليلة التي بحث عنها بداخله ليرحب بضيفين ثقيلين على قلبه ولكن الفضول في معرفة سبب الزيارة مازال يبقى على قدرٍ من الحيوية وتيقُّظ الذهن للتواصل مع الضيفين.

- "يا طايع... أنت وكلُّ مَن في غرب الأقصر يعرف طيب وعائلته... وقد جئناك طالبين المصاهرة."

- "المصاهرة؟!"

- "نعم... نريد ابنتك مروة زوجةً لطيب... وسوف ننتظر ردك وقتما تشاء."

- "لا حاجة للانتظار يا شيخ عزب... فطيب هو أخي ونسبه يشرِّف كل عائلات الغرب... لكن عائلتنا كما تعرف كبيرة العدد، وابنتي لها من أبناء العمومة الكثير وأنت منا وتعرف أن قرار الزواج لا يخصني وحدي وإنما هو قرار عائلة... والبنت في الصعيد لأحد أبناء عمومتها فهُم أولى بها."

يحاول طايع أنْ يلتحف بعباءة القبيلة ويتجمَّل في إبلاغهم بالرفض والوصول لما يريد بالتمسك بتقاليد الجنوب والنزول لرغبة العائلة. وهو يعلم مَن يخاطب، فالشيخ المعمَّم الجالسُ أمامه يَدين بنفس الدين وتنتفض عروقُه لنفس المُعتَقد وكلماتُه لن تجدَ الطريق مسدودًا للوصول للقِيَم الراسخة في وجدانه. لكنه في غمرة حماسه لإرث العائلة قد نسيَ

أنّ الشعرَ الأشيبَ الذي يستكين تحت العمامة قد روَّضته سنوات العمر ولو قليلًا... والنفسَ التي تستعذب الركوعَ والسجودَ قد قهرتْ بعضًا من خصائصها فلم يعد للقبيلة تلك السلطة المطلقة عليها كما هي على الآخرين. وكان على الشيخ الحكيم أنْ يجادلَ طايع بنفس مَنْطقه.

- "ولكننا لم نسمع أنَّ ابنتك قد خُطبت لأحد أبناء عمومتها... كما أن العائلتين من نفس البدنة فنحن جميعًا من الكرايمَة وأبناءٌ للجدِّ الأكبر عبد الكريم... لذلك فطيب أيضًا من أبناء عمومتها."

- "نعم يا شيخ عزب نحن أبناء عمومة، ولكن هناك الأقربين وبعضهم في القاهرة والإسكندرية... ولكن حتى مع أبناء العمومة يحقّ لي أن أسألك ماذا لدى طيب للزواج؟"

- "أنت تعرف كل شيء عنا... فأنا موظفٌ ولدينا أرضٌ أزرعها مع أبي... نحن لسنا فقراء بل مستورين مثل كل الناس."

أطرق طايع برأسه للأرض... أصابع يده اليمنى تعبث بشاربه... يستمع لكلمات طيب وترتسم على وجهه تعبيرات السخرية... لم يكن يمانع في هذا النسب لو أنَّ حسَّان وليس طيب هو الراغب في الزواج من ابنته ليتكاملا معًا!

- "أليس لديك أي معايشٍ أخرى يا طيب؟"

- "أي معايشٍ أخرى تقصد؟ أنا أخبرتك بكل ما لدي."

- "أنت متعلم ومن الأقصر وتعرف كيف يصرِّف أقرانُك من الشباب أمورَهم... لقد سألتُ الأستاذ محسوب عنك وعرفتُ أنك لا تشاركهم

مكاسبهم من المصلحة فحدَّثتُ نفسي أنه في ذهابك وإيابك من الأقصر كل يوم أو حينما كنت تعمل في بعض البازارات قبل الوظيفة ربما تكون قد عثرتَ على مَرة عيشٍ أو حتى... دردوم؟!

كانت كلماتهُ الأخيرة طلقاتَ رصاص اتجهت مباشرةَ إلى قلب الشيخ عزب، فتجهَّم وجهه بشدة وشعر بوخزة في جسده تضارع الوخزة المفاجئة لشوكة شجرة السَّنْط حينما تكونُ الأعصابُ مرتخيةَ والجسدُ ممددًا في استرخاء فيُفاجأ بهذه الشوكة القاسية التي تقترن بشمس الصيف الحارقة والهاربينَ منها إلى ظلال أشجار السنط أو القَرَض. انتفض الشيخ واقفًا... مرارةُ القرض في الحَلْق قتلتْ الكلمات فلم تخرج من فمه سوى عبارةٍ واحدة...

– "لا حول ولا قوة إلا بالله."

أما طيب فقد هبَّ واقفًا واتَّجه ناحية الباب وفي اندفاعه خارج الغرفة تذكر أنه سبق أباه فأبطأ قدميه... حانتْ منه التفاتةٌ للوراء... مروة تجلس على آخر درجات السلم الحجريِّ الداخليِّ الذي يقود للطابق العلوي كعادة أهل الريف في منازلهم حين يجعلون الطابق العلوي مخصصا لأهل الدار. سمعتْ مروة الحوار... لم يفاجئها رفضُ أبيها للزواج، وإنما أذهلتها تلكَ الطلقاتُ التي خرجت من فمه... تراخت ركبتاها وأحسَّت بالضعف والدَوار. أي مصير قاسٍ ستواجهه بعد أن سمعت ما سمعت...، تعلمُ عن سقطات أبيها الكثيرَ وتعلم عشقَه للمال وأبدًا لم يخالجها الشكُ في حبه لها وإنْ كان مغلفًا بالخشونة والغلظة... آمنتْ أنَّ رِباط الدم سيكون أمتنَ وأكثرَ إغراء من شَبَق المال... الآن أدركَتْ أنها من الممتلكات... مِن الأشياء التي يملكها طايع وتنتظر الدَّور لكي

يحصلَ من وراءها على المزيد إنْ استسلمت لهذا المصير. التقت عيناها بعيني طيب فينظر للأرض ويهزُّ رأسه يمينًا ويسارًا ويمرق خارج الباب الخشبي الكبير ويتبعه الشيخ عزب متجهِّم الوجه.

العاشقةُ الجنوبية تستقوى بالصبر على اللون الأسود في شمس الصيف الحارقة وقرونِ الخضوع الطويلة الكئيبة خلف النوافذ والأبواب وتحت الأقدام... وبنَظرات الحبيب وهما يجلسان في معبد الملكة العاشقة... وبوعدها لنفسهَا بأنها لن تكون لسواه... تقوى الركبتان وتسري قشعريرةُ الحياة وغريزةُ الدفاع عن النفس في كل أعضائها فتقودها إلى تلك الغرفة... ذلك الجسد الغريب في الدار الذي شهد قهر أمها في سنوات طفولتها... مازالت تشمُّ رائحةَ (المَرَة البيضا) التي جاءتْ ذات مساء مع أبيها وأغلق عليهما الباب... وتذكر أمَّها أم السعد المتقرفصة بجوارِ الفرن البلدي... ودموعَ أمها المخنوقة خلف جفون متبلدةَ... وجسدَ أمها الذي أطبقَ عليه ظلامٌ مفاجئٌ كدخان الفرنَ البلديِّ. مازال طايع جالسًا فوق إحدى قطع الأثاث الوثيرة وأصابعه مازالت تعبث بشاربه. انتبه فجأةً حين اندفعَ بابُ الغرفة للداخل في عصبية واضحة... ابنتُه مروة واقفةٌ أمامه... تحدِّق النظرَ في وجهه... المرَّة الأولى في حياتها التي تنظر إليه هكذا في عينيه وتُطيل النظر.. أي جرأة تلك التي تدفعُها... لا يعرف إنْ كانت قدْ سمعتْ حوارَه أم لا... يجمع شتات أفكاره...

- "ما بك يا مروة؟ وكيف تقتحمين الغرفةَ هكذا؟"

- "لكي أسألك... لماذا؟"

- "ماذا تقصدين؟"

- "أقصدُ أنّي شعرتُ بالعار حين سمعتُك تتحدث... أتريد أنْ تزوجني لحسّان مثلًا أو بدري الذي يبصقُ أبوه على منزله كلما مرَّ أمامه؟ أهذا هو النسبُ الشريف الذي تبغيه لي؟ "

"إنها تقرأ أفكاري، فهما الاسمان اللذان دارا بخلدي فعلًا... ولكنها تجرَّأتْ كثيرًا فمن أين لها بهذه الجرأة؟" كان طايع ينظر إلى ابنته وهي يعلو صوتُها حتى أصبح صُراخًا أفزعَ أمَّ السعد وأتى بها مهرولةً للغرفة التي نادرًا ما تدخلها. لم يكن هناك مجالٌ لجدل يحكمه منطقٌ أو عُرفٌ وإنما استشعر طايع حاجَتَه لاستخدام سلطته الأبوية لإسكات هذا الصوت الذي يشقُّ أذنَه وصدرَه... كفُّهُ العريضَة الخبيرة بالتعامل مع أجساد النساء ارتفعتْ في فراغ الغرفة واستقرّتْ على وجهها بكل قوة الساعد وحنق اللحظة ومفاجأة الجرأة التي لم يعهدها من ابنته... ثم ارتفعتْ وهَوَتْ... ثم ارتفعت وهوت... ولم يذكر أيٍ منهما كم مرة لامَسَ كفُّه وجهَ أو رأسَ أو جسدَ ابنته حتى استحالَ جسدُ أم السعدَ حجابًا بينهما. هدأتْ عاصفةُ الصَّفع والرّكل، وخفَّتْ حدَّةُ اللسان المُنفلت بأقذع الأوصاف التي طالتَ مروة وأمها... خرج طايع من المنزلَ تاركًا جسديهما يرتعدانِ ويكملانِ معًا قرونَ القهر.

# الباشا القِبطيُ والدراويش

بيتُه هو بيتُ الأمّة في الأقصر يومَ كان للأمة بيتٌ وكان لأهل البيت صوتٌ... وأهل البيت المصريين المسلمين في معظمهم أعطوا هذا الصوتَ للباشا القبطيّ توفيق أندراوس... وأبو الباشا يبني ضريحًا ومساجدَ وكنائس. سلالم بيت الأمة القابعُ بجوار معبد الأقصر هدف لسنون اللودر الهادرِ العملاق... وعلى سلالم القصر جلستْ بناتُ الباشا جميلة وصوفي ولودي... يدفعنَ بأظافرهنّ السكاكين الفولاذية. صوتُ الشيخ ياسين يصدح بالنداء الصوفي" يا مُمدَّ المَدَد... مَدَد"... كراماتُ الأولياء ودعواتُ الدراويش قد تنفعُ يومًا تَقيًّا ميتًا... التاريخُ لم يحتَضر بعد... أعارَ أظافرَه لبنات الباشا فتكسَّرتْ أسلحةُ الآلة العملاقة كما تَتكسَّر أشواكُ السَّنط إذا ما اصطدمت بأحجار الجرانيت الصلدة. مَن أعطوا أصواتَهم للباشا بالأمس كان لهم عقلٌ يفكرون به ونخوةٌ وفتوّةٌ حَمَوا بهم الباشا وزعيمَ الأمة رغمًا عن عَسْكرٍ ومأمورٍ قزم طامع في القفز على أكتاف رجالٍ بقامة سعد زغلول وتوفيق أندراوس... الباشا الحر الثائر. كان أبوهُ يرْفلُ في ثراءٍ حلال... لم يُثرِ فجأةً في

الظلام كما تلد الغواني أبناءَ الحرام. الرجل معلوم الجذورِ وثراؤه معلومِ الهوية... يزرَع الأرضَ ويعمرُها. يعشق الفقراء ويجل الدين ورجاله مسلميه ومسيحييه فيهبَ عشرات الأفدنة من حرِّ أرضه وشريف ماله وقفًا خالصًا لخدمة المساجدِ والكنائس. بنى مدرسة الأقباط وجمعية الشبان المسلمين ومسجد (المَدامود) ومسجد (المقشقش) حول ضريح الولي. ذهب الأب وجاء الابن الذي بدأ تعليمَهَ في مدرسة والده ثم القاهرة فإنجلترا ثم عاد ثائرًا مع الثُّوار وتصدَّر الحركةَ الوطنيةِ المطالبة بالاستقلال مع سعد زغلول. فلاحو الأقصر البسطاء وربما الحُفاةُ الجَوعى كانوا يفهمون ويعقلون فاختاروا الرجل ليتحدث عنهم في بيت الأمة الأكبر... منزل سعد زغلول. يُنفى زعيمُ الأمة وتشكو أمُّ المصريين صفية زغلول ضيقَ ذات اليد فيهبُّ باشا الأقصر القبطي ليبيعَ مئات الأفدنة من أرضه ويضع الأموال تحت أقدامها لتستكمل الحركةُ الوطَنية خُطاها. يعود الرجال من المنفى ويُبحر سعد زغلول في النيل للجنوب... يصل موكبه للأقصر ويجد في انتظاره توفيق باشا بين الفلاحين ويحيطهم العسكر. لم يكن الفلاحون يخافون العسكر بعد... ولم يكن رجال الأمة ونوابها مدجَّنين بعد... كانت نخوةُ الجنوب حاضرةً والكلمةُ من الرأس... ويعرف الرجلُ أنَّ كونَه رجلًا هو تكليفٌ من القَدر أن يتصرف كالرجال. عَبَرَ سعد زغلول مع توفيق باشا أندراوس إلى القصر وعَلَتْ هتافات الحضور: "يحيا سعد" فأجابهم سعد: "بل يحيا توفيق باشا أندراوس." هنا كان يجلس صانعو التاريخ وهنا تحدثوا وخططوا وأعطوا البيعةَ من أجل الوطن. هذا المَكان رئةٌ من رئات تاريخ الأقصر مازالت تتنفس وتنبض... أزعجهم نبضُها فأرادوا اغتيالها في لحظة صمت وغفلة وربما تواطؤ. علموا أنَّ فلاحي اليوم غير فلاحي الأمس... فلنْ يحيط بالقَصر أحدٌ أو يتترَّسَ على درجاته وأمامَ أبوابه وحولَ جدرانه

أحدٌ. أحفادُ اليوم مشغولون بمطاردة حريم العيش والدراديم في شوارع طيبة أو لاهثون خلفَ رغيف عيشٍ تملأه القاذورات أو منهمكون في التجارة الحرام... تجارة التاريخ. منذ عدة أيام تمَّ اغتيال رئة أخرى... اغتالوها على مراحلٍ حتى كانت الطلقةُ الأخيرة بانهيار جدران القصر التاريخي الآخر الذيْ كان موجودًا بالأقصر... أهانوه قبل أنْ يهدموه... وكما لم يُغثه أحدٌ أو يردُّ عنه الإهانة لسنواتٍ طوال، فلم يدفع عنه الموتَ والطلقةَ الأخيرة أحدٌ.

***

كل صباح وعند ذهابه إلى عمله يترجَّل طيب من الميكروباص عند مدخل مدينة الأقصر ويمتِّع عينيه برؤية النيل ويطلق لدمه العنان ليُنشِّطَ عضلات قدميه بالسير مئات الأمتار قبل أن يصلَ المصلحة وقبل أنْ يجدَ نفسه أسيرَ الغرفة الضيقة والمقعد الخشبيِّ مدة ساعات العمل. وجد نفسه هذا اليوم أمام القصر الذي التفَّ حوله عددٌ من الأهالي اكتفوا بالفضول والمشاهدة منتظرين لحظةَ انخلاع الدرجات الصخرية واستسلام الجذران وانحناء الأعمدة وارتفاع دخان الأتربة. وكانت هناك قطرَ الندى تتمنى أنْ يسقطَ القصر بمن فيه حتى لا ينافسها في السيرة والذكر أحدٌ. بعض الحاضرين كان يريد فقط أن يرى القابعين وراءَ أسوار ونوافذ القصر المغلقة وبعضهم مدفوعًا بجهل السنين كان يطمع في لحظة شماتة بلهاء. توقف طيب ليرى هزيمةَ الفولاذ إمام أظافر التاريخ وتراجُعَ رموزَ الانكسار وأبطالِ الكرتون المنتشين بكروشهم المنتفخة... يحدِّق في الوجوه ويتعجَّب لابتسام بعضها...

– "كيف يريدون هدمَ بيت الأمة؟"

سؤله الذي ردده مرات ومرات لفَتَ إليه أنظارَ الواقفين وجعل الابتسام قهقهةً عاليةً ساخرَةَ وكأنَّ السائلَ قادمٌ من مخزن قديم لكتب التاريخ تغطيه الأتربة... يتحدث لغةً ميتةً لا يفهمها الضاحكوَّن بملءِ أشداقهم... الواقفون لا يفقهون أو يتحدثون إلا بلسان طايع... كلّ الوجوه متشابهةٌ... نظراتٌ ماكرةٌ رآها بالأمس في دار طايع ويراها اليوم على نيل الأقصر. غلٌ وحقدُ... كيف لبنات الباشا أن يسكنَّ هنا على النيل ويُحطنَ أنفسَهن بأبواب مغلقة ونوافذ مشرعة تقيهن أعين المتلصصين... كيف لطيب أن يتزوَّج كلَّ ذلك المال الذيَّ قضى طايع سنوات عمره ورحيق شبابه لجمعه. سخريةٌ وشماتةٌ صفراء تقفز من العيون... الآن سنرى بنات الباشا وقد هُدم القصرُ وذهب ترابًا تذروه الرياحُ وزالتْ آخر شواهد التمييز وانقضى زمنُ العرفان بالجميل... والآن نرى الهزيمة تعربد في عيني طيب ليعرف أنَّ كلَّ ما يمكنه أنْ يصبوَ إليه لن يزيدَ عن مكتبٍ خشبيٍّ متهالكٍ في بنايةٍ فاسدة... وليصمتْ هذا القلبُ الذي يصرُّ على الحياة.

لم يستطيعوا هدمَه هذه المرة فانسحبوا، كما توارتْ خلف النوافذ بناتُ الباشا وبدأ الحضور في الانصراف وقدرًا تلاقت عينا طيب بعيني قطر الندى قبل أنْ تهمَّ بالانصراف إلى سيارتها وقد خاب رجاؤها هذه المرة.

– "أنت طيب أليس كذلك؟ ماذا تفعل هنا؟ ظننتك أبعدَ ما تكون عما يحدث في الأقصر."

– "إمَّا أنَ أكونَ معكم أو أكون بعيدًا عمَّا يحدث... ألا يوجد اختيارٌ آخرٌ لمثلي؟!"

- "أي خيارٍ آخر سيكون خاسرًا يا طيب... فالقرار قدْ حُسم. ستصبح الأقصر مُتحفًا مفتوحًا في غضونِ سنوات قليلة. لقد دفعتْ المنظمة الدولية ومازالت تدفع أموالًا طائلةً لتنفيذ هذا المشروع."

- "متحفٌ مفتوح! الأقصر كلها متحف... ولا يوجد في المتاحف سوى الأموات والتماثيل التي لا تتنفسُ أو تنبضُ بالحياة... الأقصر بها أناسٌ مازالوا عَلى قيد الحَياة وليسوا تماثيل... ما رأيكِ لو تم تحنيطهم؟!"

- "الأحياء يمكنهم أنْ يعيشوا في أماكنٍ أخرى."

- "لماذا لا تعترف تلك المنظمةُ بتاريخنا الحديث؟ أليس هو جزءٌ من جسدنا الحي؟ ألا تندرج الكنائس والمساجد والقصور تحت مُسمَّى التراث والحضارة؟ أليست حياة الإنسان وأرضه وثقافته وما يفعله الآن هو الحضارة بعينها؟"

- "إنهم أدرى منّا بتحديد الأولويات وما يستحقُّ البقاء من عَدَمه... فهي منظمةٌ دوليةٌ يثق بها العالم كله وتحمل لواء العلم والثقافة والفكر."

- "والعنصريةِ أيضًا يا حاجة."

- "ينفقون كل هذا المال للحفاظ على تراثنا وتتهمهم بالعنصرية؟"

- "إنهم يؤمنون بتراثنا القديم ولا يؤمنون بنا... ألمْ يرفضوا أنْ يجلسَ على مقعد المنظمة الوثير أحدُ أبناء هذا التراث؟ وكان سبب الرفض أنه ابن هذه الحضارة... أنه مصري. إنهم لا يعترفون بتاريخنا الحديث بل يضيقونِ به وبنا... يريدون تفريغ الأقصر منا جميعًا... يعتقدون أننا لا نستحقُّ هذه الحضارة وهذا الإرث وأنتم تساعدونهم في ذلك. هل

تقوي هذه المنظمة أن تفعل في أي مدينة غربية ما تفعله في الأقصر؟ وتَسلب الإدارةَ المحلية جزءًا من إرادتها حين تحدد أولوياتها؟ نحن أصحابُ التراث والميراث وهم الزائرون الضيوف. كان علينا أنْ نحدِّدَ لهم مساحةَ التحرك وحجمه بدلًا من كل هذا الرضوخ غير المبرر. كان يجب أن ندافع عما أنجزناه وشيدناه بأيدينا وفي عصرنا تمامًا كما ندافع عما أنجزه وشيده أجدادُنا."

– "أنت يا طيب تضخِّم الأمور وتهوى العيشَ أسيرًا لأشياء وهمية... لماذا لا تأخذ الأمور ببساطة وتبحث عما تريد لنفسك وتستمتع بالحياة لن أقول مثل رفقائك بالمصلَحة ولكن على الأقل مثل أخيك حسَّان؟"

في لحظة جال بخاطرها أنْ تُلقي في وجهه صدمةً توضح له أنه أبعد ما يكون عمَّا يحدث في دائرته المقربة وليس في الأقصر فقط وتعيده للواقع... التفتتْ إليه وكأنها تذكرت شيئًا مفاجئًا واستدركت حديثَها سائلة إياه بوجهٍ ضاحكٍ متهكم...

– "أخبرني يا طيب ماذا تعرف عن زوجة أخيك؟"

باغته السؤال وحسبه تلميحًا لفارق العمر بين حسَّان وزوجته، وأنه تزوجها من أجل المال فنظر إلى الأرض وأجابها بصوتٍ خافت...

– "أعرف أنها إنجليزية."

– "ألم أخبرك أنك أبعد ما تكون عما يحدث... ليست إنجليزية يا طيب بل إنجليزيًّا!"

أطلقت رصاصَتها وأتبعتها بضحكاتٍ عاليةٍ كتلك التي سمعها منها

حين رآها بالمصلحة ثم اندفعت إلى سيارتها هاربةً من وجهه ومن ردة فعله التي ربما تشط ولا تودُّ المغامرة بانتظارها. أما هو فقد أحسَّ بالعُري التامِّ أمام الناس... عارٍ وكل العيون تلاحقه ووخز أشجار السنط يتلذذ باختراق جلده والقلبُ يطرق جدار الصدر في تعجُّل للهروب من المكان والناس... وتبعثُ الذاكرة له بألم الوخزة الأولى التي خبرها يومَ استقبل أخاه في المطار... يكاد يرى وجهَ أبيه الذي تجلط الدم في عروقه فجأة حينما أصابته نفس الرصاصة... وجهَ طابع الساخر الشامت ووجهَ أمه الحائرة التي لا تفهم غير أنَّ ابنَها الأصغر قد أتى عارًا لا يقل عن عار البنت الخاطئة. في ثنايا الحزن والغضب فُقدَتْ الفرحةُ الاستثنائية بصمود بيت الأمة وبنات الباشا أمام غطرسة المنظمة الدولية والإدارة المحلية الرخوة... ولم يتبقَّ من شارع الكورنيش وما حدث فيه في محفوظات عينيه سوى وجه قطر الندى الساخر وهي تركب سيارتها ولم يبقَ من حروف اللغة غير كلماتها الأخيرة ولم يبقَ من فنون قتل الآخرين سوى مهارتها في إطلاق رصاصتها الأخيرة فعادتْ به قدماه إلى الغرب بدلا من قطع مئات الأمتار إلى المصلحة كما اعتاد أن يفعل مئات المرات ولم يعد يتذكر تفاصيل رحلة عودته القصيرة ولا تفاصيل الوجوه التي رآها في تلك الرحلة...

***

يقف أخيرًا أمام منزل أخيه... ترتجف أصابعُه قبل أنْ يطرقَ الباب بعصبية وعنف.

– "ماذا هناك يا طيب؟"

كأنه يراه لأول مرة، يحدِّقُ طيب في تفاصيل وجه أخيه... يستغربه.. تتباطأ الكلمات على لسانه ويجف حلقه. تُنبت ثمار القَرَض على أفرع أشجار السَّنط وتحيطها الأشواك ويتطبّب بمرارتَها المرضى وتَفطم بها النساءُ أطفالهنَّ... عندما تحين ساعة الفطام ويتشبّث الطفل بثدي أمه تُفاجأه المرارةَ فتقزعَ نفسُه... يحنُّ إلى الثدي مرات أخرى وفي كل مرة يجدُ نفسَ المرارة فيبتعدَ عنه للأبَدَ. أقسى الفطام ما تمارسه الجنوبيات معَ أطفالهن... فطامٌ يتذوق فيه الرضيعُ مرارةَ ثمار القرَض التي لن تغادرَ فَمَه حتى الموت... تتخفّى أحيانًا فينساها... وإذا جفَّ الحلقُ يوما نَبَتَت وتفرَّعَتْ وملأت الفم تمامًا كما تعيش أشجار السَّنط في الجفاف.

– "هل حقًّا ما أخبروني به عنكَ؟ أنكَ تُرافق رجلًا؟"

– "نعم... وماذا في ذلك... هذه حريةٌ شخصيةٌ لابدّ أنْ يحترِمَها الجميع... هناك في إنجلترا وفى كل أوروبا حرية الإنسان في الاختيارِ فوقَ كل شيء... لا وصايةَ لأحدٍ على أحد... الحرية الشخصية مقدسة وحقُّ الإنسان مقدَّسٌ."

– "ولكننا يا أخي لسنا في أوروبا... نحن في الأقصر في صعيد مصر... أبوكَ مازال يخطب في المسجد يوم الجمعة ويؤم الناس في الصلاة... وإذا كانوا حقًا يقدسون حقَّ الناس في الاختيار فلماذا لا يحترمون حقنا هذا؟ نحن قد اخترنا قيَمَنا وما نعتقده منذ زمنٍ طويلٍ، ومنْ يعِش معنا عليه أنْ يحترِمَ اختياراتنا."

– "لا ليس بهذه الطريقة الشُمولية يا طيب... فالحرية التي أتحدث عنها هي أنْ تحترِمَ اختياراتي لنفسي ولا تسألني أو تحاسبني عليها، وأنا كذلك لا أسألُكَ أو أحاسبُك... هم تقدموا في الغرب لأنهم أعلوا من شأن الإنسان".

- "وأين الفطرةُ؟ وأين الدينُ؟ وهل أنْ يصبح الإنسان مسْخًا مُشوَّهًا هو ما سَيُعلي شأنه؟ ولماذا نحن الذين نقبل ما اختاروه هناك لأنفسهم ولا يكون العكس؟ كما أنك لم تفعل ما فعلتَ اقتناعًا بفكرة أو دفاعًا عن حرية بل باختصار أنتَ بعتَ كرامتك وجسدك من أجل المال... كنا دائمًا في الجنوب نعيبُ على الذين يبيعون بناتهم في بعض مدن الشمال كالحوامدية مثلًا لعواجيز العرب الأثرياء تحت رداء الزواج الذي اعتبره أنا شخصيًّا نخاسةً... أنتَ أسوأ منهم فعندما تبيع البنتُ نفسها أو تُباع قد تكون مقهورةً بفعل فقر قاس ومجتمع تخلى عن شرفه أو مجبورة من نخَّاس سرق رداء الأبوَّة، أماَ عندما يقرر الرجل أنْ يبيعَ نفسَه فلا عُذْرَ له حتى لو كان كسيحًا أوَ شريدًا أو جائعًا."

- "أنا لنْ أغضبَ من انفعالك يا طيب... ولكنّ هذا جدلٌ لنْ يغيِّرَ من الأمر شيئًا."

- "حتى هذا الصباح لم أكن قد فقدتُ الأملَ بعد في أنك عائدٌ إلينا يومًا ما... أما الآن فأنت محقٌّ... هذا جدلٌ لن يفيد... لقد أصبحتَ منهم... فيا مَن تقدِّس حقَّ الناس في الاختيار، لا تخاطبني بكلمة أخي بعد اليوم."

غادر طيب إلى منزله... مازال يشعر أنه عار وجلده يتقشَّر عن عظامه ودمه يتساقط فتجتاحَ الجسدَ قشعريرةٌ باردةٌ. ترتجف الأطراف... يُدثِّر نفسَه بأغطية متعددة علّه يستدفأ بها لكن دون فائدة فهو يشعر بالبرد من داخله جرَّاء دمه المتساقط وعظامه المتهتكة ولحمه الذي تملأه ثقوبُ السِّلاع (جريد النخل ذو الأشواك). يُغمض عينيه حتى لا يرى ما حدث بالأمس واليوم ولا فائدة فوجه طايع مازال يطارده ومروة الحزينة الغاضبة

تنتظر أنْ يختطفَها الحبيب ولو رغمًا عنها ووجه أخيه الشارد. كل ما استطاعه أنه اتَّخذ قرارًا أنْ يتعدَ عن الأقصر شرقها وغربها. عرض عليه محسوب مرارًا وتكرارًا أنْ يسافرَ للقاهرة لتسليم بعض الأوراق للإدارة المركزية هناك ثم يقضي عدة أيام في إجازة... كان يرفض أنْ يغادرَ الأقصر أما الآن فهو من سيطلب ذَلك. ففي ضوضاء القاهرة وزحامها وضجيجها سيتسعُ له الكونِ وتَصْغُرُ آلامه مع التحامه بالكتَل البشرية التي تتيه في الشوارع نهارًا وليلًا. ولكن هل مِنْ قبيل اتفاق خواطر المحبين وتآلف الأرواح أنْ تستطيع مروة في نفسَ الأسبوع وبعد إلحاح منها ومن أمها أنْ تحصل على موافقة طايع أنْ تُسافر للقاهرة لقضاء بعضَ الأيام مع عمَّتها المقيمة هناك؟ رغمًا عن مشاعر الرفض التي يحملها طايع لأخته لأنها تمرَّدت بالأمس ونجحْتْ بجزء من تمرُّدها، إلا أنها كانت مَن أمنَها على ابنته أثناء دراستها فقضت معهًا أربع سَنواتِ كَفُلت اقترابَهما الَروحيِّ والذهنيِّ.

***

حين يركُض الرجلُ الكسيحُ على قدميه من فراشه الذي لم يغادره منذ أسبوعٍ إلى غرفة أبنائه النائمينِ، ساعتها يصبح الحريقُ الذي شبَّ بمنزله أمارةً من أمارات الولاية وكرامةً من كرامات الشيخ المقَشقش الذي لم يقوَ الرجلُ القعيد على السير لزيّارته فيحمله أهله على الأكتاف حتى يلامس الضريحِ... يعودون به إلى المنزل... ينتظر البشارة... تمرُّ الأيامِ السبعة... يشبُّ الحريق فيتحققَ الأمل ويقفز الرجلُ من فراشه لينقذَ صغاره النائمين. لم تكن تلك إلا إحدى معجزات المقشقش التي تتناولها الألسنة على المقاهي وفي المنازل وبين الطرقات... يتحدثون

عنها كما يتحدثون عن المرأة التي لم تنجب لسنوات وظنها الناسُ عاقرًا وهمست لها بعض الخبيرات بزيارة ضريحه ففعلَت وكتبت مطلبها في ورقة دفنتها بجوار الضريح وجاءتها الرؤيا أنها ستجد ورقةً مماثلةً مدفونةً في نفس البقعة بعد عدة أيام... ستُنجبين بنتًا اسمها فاطمة... هذا ما وجدَته مكتوبًا... وكما تقول القصة فلم تكمل الشهر حتى أتتها آلامُ الحمل. إسماعيل بن جعفر بن علي... طبيب العصر الأيوبي الذي أسلم على يديٍ الصوفي الكبير أبي الحجاج الأقصري، صار الطبيبَ الورع والولي الصالح الذي درس علوم القرآن والشريعة... ثم وهبَ نفسَه وعلمه وطبَّه لشفاء آلام الناس فأطلقوا عليه اسم المقشقش أي الذي يشفيَ الألم. أحبَّه الناسُ وولَوه على قلوبهم ورفعوه لمصاف الأولياء وأصحاب الكرامات... وما إنْ مات حتى بنوا له ضريحًا خلف معبد الأقصر وبنوا حول الضريح مسجدًا أضيفت له بعضُ الأجزاء في العصور التالية وكان أهمها الباب الأثري من العصر المملوكي. عَبَرَتْ كراماتُه الزمن وغدا ضريحُه أحدَ مقاصد الدراويش والمدلهين الذين أقاموا له ليالي الذكر وغدا له من المريدين الكثير من الأقصر وما يجاورها ومازال الأهالي يتناقلون معجزاته. تتهدَّمُ أجزاءٌ من المسجد بفعل الزمن فقام درويش الوطنية المصرية – يوم أن كان لها دراويش حقيقيون – الباشا القبطيُّ توفيق أندراوس بإعادة بناء المسجد المتهدم وقام بتوسيعه لاستيعاب المريدين والمصلين. بقيَ الضريح والمسجد لعقود متتالية قطعةً ثمينةً من إرث الأقصر الحي وشخصيتها المتفردة حتى ضاقَ المتغطرسون بكل ما ينبض بالحياة في المتحف المنشود فاغتالوا المسجد الذي بناه الباشا القبطي... المسجد الذي كان يذكر الجميعَ بذلك الزمن الذي كان المصريون يفكرون فيه. كان الدراويش يفترشون صَحنَ المسجد حين أمِروا بالخروج فخَرجوا... فالدراويش لا يصطدمون بالعسكر... هم

أناسٌ طيبون مشغولون بالحبِّ والعشق الإلهيّ ولا تُشغلهم الدنيا ولا يهمُّهم إلا تلك البقاع التي دُفن فيهَا مَن علموهم ذلك العشق. يخطئ مَن يبخسهم حقَّهم ويظنَّ بهم الظنون وينعتهم بالجبن حين لا يواجهون ظالمًا، عسكرًا كان أو حاكمًا أو حتى مغتصبًا لحقٍّ من حقوقهم. إنهم لا يخافون... بل لا يهتمون أو يطمعون في مغنم من الدنيا يواجهون من أجله... وهم في عزوفهم عنها أشرفُ وأصدقُ ممن يُحجمون عن المواجهة خوفًا من سيفٍ أو طمعًا في ذهبٍ.

تجمع دراويش المقشقش أمام المسجد غير مصدقين أن هناك من العقول الهوجاء من يقدر على اتخاذ هذا القرار وهناك من الأيدي الفاجرة من يملك جُرأة غَرْس سكينٍ من الفولاذ في جدار بيتٍ من بيوت الله ويرقد تحته جسد أحد أوليائه... يحدقون في انتظار مَدد لم يأت وكرامة لم يحنْ موعدُها بعد حتى استحالَ المسجدُ فراغًا تملأه الأتربَة والدراويش يسبِّحون ويستغيثون جهرًا وسرًّا. سَرَتْ في الجموع شائعةٌ لرؤيا رأتها الحاجة قطر الندى... أنَّ الولي الصالحَ استغاث بها طالبًا نقلَ مسجده وضريحه بعيدًا عن المعبد الوثنيّ! الأميرة قطر الندى مَن ابتَدَعَتْ هذه الفكرة... أمرتْ رجالها أنْ ينثروها على مقاهي وشوارع الأقصر فقط في الليلة السابقة للهدْم حتى لا تستغرِقُ القلوبُ والعقول في التصديق أو التكذيب. أبدَعَتْ كعادتها وأوفتْ لَمن وَعَدَتْ بإلقاء طوق النجاة حين الحاجة إليها. أزال الدراويش بأيديهم الأتربة عن الضريح ونظفوه بملابسهم وجلسوا حوله ولا يعلم ناظِرُهم إنْ كان جُلوسُهم حِراسةً أو تبرُّكًا.

المُستَقوون بالقرارات والمباركة الدولية يكسبون أرضًا جديدةً ويُخطونَ خُطوةً كبرى نحو الهدف الأشمل... الأقصر متحفٌ بلا نبضٍ

أو حياة... خطوةٌ ستصغُر بجانبها كل الخطوات الأخرى وتهون... لم ينتصفْ النهار حتى علمَت الأقصر شرقُها وغربُها بهدم مسجد الولي الصالحِ والطبيبِ الورعَ المقشقش.

***

"أيُّها الكاذبون المنافقون، أما تَستَحونَ من الله... بأيِّ جرأة تركعونَ وتسجدونَ وتُمرِّغون تلك الوجوهَ الآثمة على سجاجيد الصلاةً. أتظنون أنكم تَمكرون على الله، ألا فاعلموا أنه يعلم ما يجيث في الصدور وتُخفي الأعين والقلوب. تتركون أبناءَكم يهيمون على وجوههم كالبهائم يشربون الخمر ويزنون ويلوطون ويسرقون ويبيعون شبابَهم ودينَهم ثم تأتونَ للمساجد وتركعون وتسجدون... لا حاجةَ لله بصلاتنا بل نحن من نحتاج إليه. تتحدّون ناموسَ الله في ملكوته وتمنعون حلالَه ثم ترفلون في الحرام. بأي دين تدينون؟ إذا جاءكم مَن ترضون دينَه فزوِّجوه وأنتم تطلبون حَسَبًا ونَسَبًا وتلالاً من الأموال الحرام... اعلموا أنْ العواطفَ والغرائزَ حقيقةٌ خلقها الله وليست عارًا... إنما العار هو أنْ تتركوا أبناءكم وبناتكم فريسةً لهذه العواطف والغرائز وتوصدون أمامهم ما شرعه الله. لقد خلق الله الناس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا لَا ليتعصَّبوا وتحكمُهم قبليَّة وجاهليةُ ما قبل الإسلام... لقد قال رسولنا الكريمُ مخاطبًا آل بيته الأطهار "لا يأتيني الناسُ يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم... أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم."

احتدَّ الشيخ عزب وهو على المنبر وانفعل غاضبًا بعد أنْ انكشفَ له ما كان يجهله مما يحدث في القرنة. طاشتْ كلمات طايع طالبًا من طيب حتى يقبله زوجًا لابنته أن يأتي بامرأة عيشٍ أو دردوم... فهِمَ الشيخ

الكلمةَ الأولى و لم يفهم الثانيةَ واستحى أنْ يسألَ ابنه وهو لم يستفقْ من صدمة الرفض بعد. أسرَّ بسؤاله لأحد جُلسائه الذي عَقَدَت الدهشةُ لسانَه واستغرب سؤال الشيخ الوقور ولكنه أخيرًا لم يجد بُدًّا من إخباره بما يجهل. أسهبَ جليسُه في الحديث عن فلان وفلان من شباب غرب الأقصر ممَّن باعَ نفسَه وثَقُل على الرجل أن يذكرَ بينهم حسَّان فتلعثمَ وصمتَ.

– "ماذا بك يا رجل؟ قل ما تريد ولا تَخفِ منِّي شيئًا."

– "وابنك حسَّان يا شيخ عزب مِن هؤلاء."

بُهتَ الشيخ وتجمَّد جسده وانطفأ بريقه وشاخ عقودًا في برهة من الزمنَ لم يُرِدْ لها أنْ تطول... كما حسم أمرَه من قبل حين عودة ابنهَ من إنجلترا فلم تطأ قدمُه الدار، ها هو يحسم أمرَه مرةً أخرى...

– "ليس لي ابنٌ سوى طيب."

رمى بها جليسَه ثم انصرف لداره... استحالَ مقعدُه وسريرُه جَمرًا يُلهب جسدَه كلما جلس أو اتَّكأ... أحسَّ كطيب بالعُري وعيون الناس تنهش جلده وترجم عظامه. كان دفءُ الأبوة حتى لحظات مَضَتْ يتمنى أن يرجع الابنُ الشارد ويتخلَّص من تلك العجوز الشمطاء، وكان حتمًا سيجد متَّسعًا في صدره لاحتوائه... أما الآن فقد تحول هذا الدفءُ لهبًا وغيظًا. ليست مصيبته وحده بل مصيبة جيل ضلَّ الطريق... فماذا أنت فاعلٌ يا إمام المسجد؟ حتى طيب الذي يتوكَّأ عليه في لحظات الضيق قد سافر للقاهرة. لم تُسعفه قوتُه في إخبار أبيه... ظنَّ أنه ربما لنْ يعرف أبدًا... لم يدرك أنَّ ما أخبرتْه به قطرُ الندى يعني أنَّ الخبرَ لم يعد سرًّا. غرق الشيخ في آلامه حتى صلاة الفجر... توجه للمسجد ثم عاد

ليهجعَ الجسدُ المنهك سويعات قبل صلاة الجمعة. قام فتوضأ ثم ارتدى عباءته البيضاء وعمامته البيضاء وفي طريقه اصطدمت عيناه بوجه طايع. اهتزَّ داخله ونفرَتْ عُروقه... اعتلى المنبر واشتدَّ في خطبته عكس ما ألفه الناس فيه من لينٍ في الوعظ وسعة صدرٍ في الإيضاح.

عيون المصلين متعلقةٌ بالشيخ... بين مؤيِّد لما يقول ومعترضٍ وغير مصدق وظان بالشيخ الظنون فالجميع صامتٌ. أحكام الصلاة ضَمنَتْ للشيخِ إنصاتَ سامعيه... ذبذباتُ صوته المتحشرج أثناء التلاوة تَشي بأنَّ النفس المضطربة لم تهدأ بعد... وما إن انتهت طقوسُ الصلاة حتى وقف الشيخ عزب بجوار المنبر مخاطبًا أهل القرنة...

- "أُشهِد الله وأُشهِد أهلَ القُرنة أنّ ليس لي ابنٌ سوى طيب."

و كما رمى بها جليسَه بالأمس فقد ألقى بها في وجوه المصلين ثم انصرف مُغادرًا المسجد. أعلنَ براءَته من حسَّان على الملأ قبل أن تحمله أقدامه إلى المنزل وهناك أعلنَ زوجته رئيفة أنَّ ابنها الأصغر لم يعد منهم. عجز لسانه أن يُفهمها السببَ وهي لم تجادله بل رفعتْ يديها إلى السماء تُتمتم بلسان وقلب الأم المحترق.

# اللص

- "عليكَ أن تُقنعها بالبيع."

- "أبدًا لن ترضَى... أمي مازالت تعتبر الأرض كشرفها ولن تتركها بإرادتها."

- "لابد أن تتصرف يا همام، إن كنتَ تريدَ استغلال الفرصة فالرجل الذي أحضره آلان قد رأى الأرض وأعجبه موقعها... هو من أغنى أصدقاء آلان وينوي تصفية أعماله في إنجلترا والإقامة هنا... أرضكم ستكون بداية الشراكة في أعمالٍ ضخمة."

- "وماذا أفعل يا حسَّان، فالأرض قد باعها أبي قبل موته لأمي وهي تحتفظ بختمها حول رقبتها ولا تخلعه إطلاقًا."

تركت قطر الندى مقعدها واتجهت ناحية همام الجالس أمام حسَّان... اقتربت منه ثم طوقت رقبته بذراعها واقترب وجهها من أذنه وبدأت تحدثه بين الفحيح والهمس الرقيق والحديث العادي.

- "أنت شابٌ طموحٌ يا همام، ولولا ذلك ما أوكل لك حسّان وآلان إدارة أعمالهما فهما يثقان بذكائك وأنا أيضًا بخبرة السنين الطويلة أرى في وجهك علامات الطموح وتوهج الشباب... ستنقلك هذه الصفقة مع أمك إلى مرحلة كبرى في حياتكما... العمل في الزراعة قد أنهكها وعليك أن تُريحها من هذا العناء... يمكنك أن تقنعها بما يمكن لكما أن تفعلاه بثمن الأرض... إنه مبلغٌ كبيرٌ جدًّا حتى أكثر من ثمن الأرض الفعلي."

- "أنا أتمنى ذلك يا حاجة... ولكني أدرى الناس بها... سترفض."

- "إنْ رفضَت فلن يخذلك ذكاؤك في إيجاد طريقة لإتمام صفقة عمرك... أنا وحسّان لن نأخذ عمولةً منك ولا حتى من المُشتري... فما يهمنا أن لا يشتري أرضًا أخرى ويتجه بأمواله وجهة أخرى... مازال أمامك متسعٌ من الوقت لتتدبر أمورك فهو لن يصل للأقصر قبل أسبوع ويمكننا أن نؤخر وصوله عدة أيامٍ أخرى إنْ أردتَ."

ربتَت على كتفه في نعومة ودلالٍ ثم أشارت لحسّان فانصرفا معا تاركين همام لأفكاره وخواطرِه وأحلامه التي ما إن يستغرق في أي من تفاصيلها حتى يفاجأه وجهُ أمه. لم يرَها منذ أسابيع طويلة انهمك خلالها في اللهاث خلف قطر الندى وطايع وحسّان وصفقاتهم المتلاحقة. ما أصعبَ أن يقتلع يامنة من الأرض... ربما أصعب من اقتلاع شجرة أثلٍ عجوزٍ امتدتْ جذورها تحت التربة وتفرّعت حتى افترشت كل غيطان غربِ الأقصر. كأن أباه كان يقرأ الطالعَ حين شعر بدنوِّ الأجل فاستقدم أحد خلصائه وأسرَّ له برغبته في نقل ملكية نصفِ الفَدان لزوجته يامنة... هل بَدَرَ من الطفل الصغير الذي لم يتخطَّ السادسة من العمر ما ألهم الرجل بما فعل، أم أنّ شريان الدم الذي يربط

الأب بابنه يخبر في صمت بما هو آت من مستقبل غامض للغرباء واضح كالشمس لمن يربطهما هذا الشريانُ، أو ربما كانَ هذا النوع من القراءة منحةً خاصةً من القدر تفرد بها بعض الرجال أمثال الشيخ عزب وأبو همام وغيرهما... ممن لم يعرفوا غير غرْس البذور في الطين بسواعدهم، ونَتْع أحمال التبن والغلة على الأكتاف، وقَتْل ثعبان ضخم تسلل لغيطهم بضربَة فأس واحدة دون تردد أو رهبة أو خوفٍ على الحياة، وعزق الأرض تحت شمسِ الصيف الحارقة المُلهبة للظهُور والوجوه، وتناولَ وجبة في الظهيرة من قطعة بتَّاو صلبة كقطعة الطمي اللدنة خُبزَتْ منَ الرَّدَّة أو دقيق السنِّ الأسمر وطَبق منَ المشِّ الذي مرَّ عليهِ عامٌ في الجرَة مخلوطًا بقرون الفلفل الأحمر الحار وفَحل من البصل الأخضر مازال يحتفظ ببقايا الطين، ثم الهجوع في ظلالِ خُصٍّ متهافت ينعمون فيه بنوم عميق أشبه بالغيبوبة ثم العودَة للحياة، وصلاة المغربِ والعشاء في مصلَّى مُشيَّد من جواليس الطين ومفروش بحُصرٍ يابسة فوق طبقة من الطمي الجافِ. إنَّ هؤلاء هم سرُّ الحياة في ريف الجنوب... مُنحوا قَناعةً تذيب الشهوات والأطماع وقدرةً على ترويض الجسد ليفعلَ ما تأمر به الروح... والروحُ شفافةٌ نقيةٌ كنقاء وخُلوِّ حقول وشوارع الغرب من دبيب الأقدام لحظة صلاة الفجر. توقظهم أرواحُهم قبل أن يوقظهم المؤذن فيتوضأوا في الشتاء بماء بارد كالثلج ولا يسمحون لذلك الجسد أن يتأفَّفَ. تعشق نساؤهم رائحةَ عرقهم وتُعظمنَ انسحاقَ أجسادهم في الأرض فيشعرنَ بما يريدون بطرفة عين قبل أن يلفظ اللسانُ الكلمة. نقاء الأرواح ألهمَ أحدَهم قراءة أعين طفلٍ صغير فعلم أنه لن يكون خيرَ خَلف فيلقي بالأمانة في حجر مَن تستحقُّها... مَن عشقتْ رائحةَ طين الأرض كعشقها عطر عرق الزوج وهو عائدٌ وقت الغروب يحمل فوق ظهر حماره حمولات قشِّ الجراو (أفرع وأوراق نبات الذرة الخضراء)

للبقرة والجاموسة وفي يديه بعض حبات الطماطم والبصل الأخضر لأهل الدار. أسقط المرضُ المفاجئ الجسدَ العفيَّ، وقبل أن يستسلم لنداء النهاية اجتمع الزوج بزوجته ليوصيها من بعده.

– "الأرضُ يا يامنة هي عرضُك وأهلك وعُزوتك بعدي... أعلم أنك ستشقين لأنَّ الحملَ ثقيلٌ ولكنّ نساءَنا كالرجال إذا جدَّ الجدُّ. والمرأة الأصيلة تكونَ في أرضها وبيتها كشجرة السنط... عتيَّةٌ على الاقتلاع... ظلُّها لأصحاب الغيظ... وأشواكُها كأسنان الثعابين وأذناب العقارب السامة تنغرس في لحم من يحاول العبث بها... إذا صَلُحَ شأن الولد واطمأن قلبك إليه فاعطيه أرضه بعد أن يكبر. وإنْ صدق حدسي فاجعلي قبرَك في أرضك."

لم تكن في حاجة لتلك الوصية لأنها قطعةٌ من طين الأرض. يتطهَّر الناسُ ويغتسلونَ إذا ما علقَ التراب أو الطين بأجسادهم أمَّا هي فتتطهر وتتبرك بطين أرضها وكم تناقلتْ ألسنة النساء في القرنة حديثَ وَحَمِها... تشتهي النساءُ في أشهر الحمل الأولى الفاكهة بأنواعها ما كان حاضرًا منها وما نَدَر... وبعضهن يشتهين السمك المملح أو الخضروات حتى جاءت لهن يامنة بحديث عجب... إنها تشتهي البَاجَة (قطع الطمي اللدنة بين الجفاف والليونة) بل وزادت عن ذلك أنَّ أنفَها لم تَقبل سوى قطع من الطمي من نصف الفدان الذي يملكه زوجها. تردد الزوج أنْ يدعَ امرأته تأكل الطين وذهب بها إلى طبيب الوحدة الصحية الذي ظل صامتًا فترةً لا يدري جوابًا.

– "ألا يكفي أنْ تستنشقيه أو يكون بجوار أنفك طوال الوقت؟"

– "أبدأ باستنشاقه ثم تجتاحني رغبةٌ في قَضْمه."

– "أتكفيكِ مرةٌ واحدة؟"

– "نعم."

– "إذن فابدأي الآن أمامنا!"

حاول زوجها أن يعترض ويمنعها خوفًا عليها وعلى جنينها ولكن الطبيب طمأنه بوجه باسم وإيماءة من الرأس. كان الطبيب مندهشًا مما يرى.. امرأةٌ تشتهي أن تأكل الطينَ وقد فعلتْ.

– "لا تقلق يا رجل. هل رأيت امرأةً أخرى غير زوجتك تشتهي الطين؟"

– "لا لم أرَ غيرها."

– "إذن كن واثقًا أن زوجتك امرأةٌ غير عاديةٍ ولن يمسسها ضُرٌّ."

شاعَ حديثُ الباجة في القرنة وتوقع الناس أنّ يامنة إنْ لم تمُت فستسقط حملها... وكما تأتي الدنيا دائمًا بما لا يتوقعه أحدٌ، فلم تتسمم يامنة وأنجبت همام.

في اليوم التالي لوصية زوجها لها، ذهبا معًا إلى شرق الأقصر مع أحد المقربين منه لعمل ختم لها ثم باع لها الأرض... عارك المرضَ وقاومه لأشهرٍ قليلةٍ بعد البيع حتى استسلم لنداء الفراق الأبدي.

خيطٌ غليظٌ مفتولٌ من الصوف الأسود معقودٌ عدة عُقد طوقت به يامنة رقبتَها وعلقت فيه الختم. لم تشعر أنها تأتي ببدعةٍ في القرنة حين حملت فأسًا وصرةً بها رغيف الخبز الشمسيِّ وذهبت إلى الغيط...

تقابل سخريةَ البعض منها بأقذع الألفاظ... ارتَدَتْ قناعًا حاميًا من الفظاظة وسلاطة اللسان. وقد أتى القناعُ ثمارَه حين تلاشت الكلماتُ الساخرة واستُبدلت بسواعد عتيَّة تساعدها من حينٍ لآخر في زراعة أرضها... أرادت لابنها العلاَّم وهوَ لم يرده فانتهى به الحال نصف متعلم وشاردًا مع حسَّان وظلت هي كما هي... مغروسةً في الأرض بجلبابها الأسود ونصف فدان يحيط برقبتها... تزرع وتحصد وتبيع محصولها من الخضروات وتعود كلَّ يوم عند الغروب تحمل فوق رأسها حزمةً من الجِراو لبقرتها وحباتٍ من الطماطم والبصل الأخضر... تمامًا مثل الذي رَحَل.

***

– "حمدًا لله على السلامة يا وَلْدَة الندامة."

عادت يامنة إلى الدار قُبيل الغروب لتشمَّ رائحةَ ابنها ففرحت بقدومه وتشعر أنَّ سببًا ما قد أحضره اليوم.

– "ما الذي أتى بك؟"

– "جئت لأراك فقد افتقدتك كثيرًا، وأعتذر لك عن انشغالي عنك تلك المدة."

– "تعالى يا ولدي، أحبك." (في الريف الجنوبي أحبك تعني أقبلك)

حاولت أن تحتضنه وشبّتْ على أطراف أقدامها لأنه أطول منها و لم ينحنِ لها إلا بعد أن أحسَّ بحدة أظافرها على رقبته.

– "ما الذي أتى بكَ؟ ابني وأنا أعلمُ الناس بك... لابد أن تكون

لك مصلحةٌ قد أرغمتَكَ على الحضور... أم تُراكَ تعقّلتَ وسوف تزرع الأرضِ معي كالرجال؟ دخلتُك يا ولدي عليَّ الدار بالدنيا، ولو تريد العودةَ فأنا سامحتك على ما فات يا من توحَّمتُ فيكَ على الطين !"

ينظر إليها مُتفرِّسًا الفرحةَ التي رقدتْ في عينيها حين دِخَلَتَ الدار وشمَّتْ رائحَته قبل أن تراه والتجاعيدَ التي رسمت خطوطًا على ظهر كفَّيها كأوراق الشجر الذابلة... قدماها وباطنُ كفيها وتشققاتُهم كأرض الشراقى في انتظار اندفاع المياه إليها... اسودَّ وجهُها من لَفْح أشعة الشمسِ ولكنها لم تفقد تلك الحيويةَ المشرقةَ من عينيها كفتاة في أول صباها. تُرى ماذا سيحدث لهذا الوجه وهذا الجسد وهذه الحيَوية عندما ينطق بما جاء له؟ هل ستقبل أم ستصبُّ في أذنيه مخزونَ السنين مما تعرف من ألفاظ السباب القاسية التي حَمَتْها يومًا من ألسنة المتطفلين الغرباء. رائحةُ الخبز الشمسي الذي أحضرتَه معها من عند رئيفة زوجة الشيخ عزب والذي مازال يحتفظ بسخونته أشعرَه بالجوع.

– "أنا جائعٌ يا أمي."

– "اتنتظرَ حتى أذبح لك فرخةً، أم تأكلَ مما كنتُ سآكل منه؟"

– "لن أستطيعَ الانتظار... سآكل معكِ."

أكل من المشِّ والعسل وأحضرَتْ له بقايا ملوخية طهتها بالأمس... أكلَ كما لم يأكل منذ زمنٍ ثم أعدَّتْ الشاي المغليَّ على الكانون... عندها بوتاجازٌ تستخدمه في طهي الطعام ولكنها تستمتع بشرب شاي الكانون المغلي خاصة عند عودتها من الحقل.

– "ألم يَحِن الوقتُ لتستريحي من كل هذا العناء يا أمي؟"

تهلل وجهها في فرحة طفوليَّة ظنًّا صوابَ ما فكرتْ فيه... أنه عائدٌ لزراعة الأرض... أو هذا ما تمنَّتْهُ وصدَّقته حين رأته في الدار، ولكنها أرادت أن تستوثق وتسمع ذلك منه فطرحت السؤال الذي ظنت أنها تعرف جوابه مقدمًا...

– "ومن يزرع لنا الأرض يا ولدي؟"

– "ولماذا نزرع ونقلع ونعيش في الطين طوال عمرنا؟ أنا أريد لك الراحة في منزل نظيف... وقد جاءتنا الفرصة فهناك خواجةٌ رأى الأرض ويريد شراءها ليبني فوقها قصرًا كبيرًا وسوف يدفع لنا الملايين لنشتريَ منزلًا في الأقصر... ولن تحملي الفأس وتحرثي الأرض في الشمس بعد اليوم..."

همام يتحدث عن المستقبل ويُسهبُ في أحلامه، ولا يدري أنَّ أمه لم تعد تسمعه بعد... الصدمة أصمَّتْ أذنيها واكتسى وجهُها بعلامات من عدم الفهم وعدم التصديق. كل ما فهمته أن ابنها عاد لكي يأخذَ منها الأرض ويبيعها لأحد الخواجات. انفجارُها المتوقع في وجهه لم يحدث وأذناه لم تسمعا أيًّا من ألفاظ السباب... لم تنشب أظافرُها وأسنانُها في لحمه و لم تتدافع البصقاتُ من فمها على وجهه. انسحبتْ إلى ركنٍ داخل الدار بجوار الفرن. تقرفصت على الأرض وأسندت رأسها بينَ كفيها وانفجرت في بكاء صامت لا يزيل الحزن ولا يفرغه ويطيل الألم... الدموع فقط هي من حررت نفسها من أسر العيون فاندفعت قطراتها هاربة إلى حجرها الأسود. الفرنُ البلديُّ باعثُ الدموعَ حين الخبيز وأيضًا كاتمُ أحزانِ الجنوبيات... فبجواره تتقرفَصُ الثكلى والأرملةُ حين تفقد الرجلَ السَّندَ، وبجواره أيضًا تتقرفص المقهورةُ منهنَّ والمصدومة.

لقد خابَت الزرعةُ التي وهبَتْها العمرَ في انتظار محصولها... وفَسَد المحصول... الابنُ الحيلةُ يتعجَّل ساعةَ نهايتها. تذكَّرتْ حين باع لها الرجلُ الأرضَ وحين قرأ في عيون الطفل ما عجزتْ هي عن قراءته لسنوات طويلة وربما تكون قد قرأتَه لكنَّ تلهُّفَ الأم للابن الشارد قد محَا ما قرَأتْ. تذكرتْ حديثَ الزوج على فراش المرض عن الأرض وما استأمنها فحسمَتْ أمرَها... بطرف ردائها الأسود جفَّفتْ دمعها... اقتربتْ من همام الذي كان جالسًا في الفناء الخارجي...

- "اسمعني يا بني جيدًا... إنْ أردتَ بيع الأرض فافعل بعد موتي... هذا عهدي مع صاحب الأرض، ولن أخلعَ هذا الخيطَ عن رقبتي إلا حينما يُربط بدلًا منه كفني... عُدْ من حيث أتيت، فهذه الدار لا تصلح لكَ."

كما توقع... الرفض القاطع فلا يمكن أنْ تقبلَ شجرةُ الأثْل قرارَ إعدامها وحرقها... وهنا استرجعت أذناه كلام قطر الندى له عن الذكاء والطموح... فتقدم من أمه وأحاط كتفيها بذراعيه.

- "كانت مجردَ فكرة عرضتُها عليكِ... ولن أفعلَ ما يُغضبك... الأرضُ أرضُك والقرارُ قرارُك... فلا تغضبي منِّي أو تحزني... أنا أشتاق أنْ أنامَ على سريري القديم فهل مازال موجودًا؟"

بين الريبة فيما يقول والشوق أن تستأنسَ بابنها الوحيد تبسَّمتْ وأشارتْ إليهَ أنه مازال هناك في مكانه فتوجه همام إلى غرفته الضيقة.

***

حلَّ الظلام وألقتْ بجسدها التَّعب على السرير ولم تمضِ ثوانٍ معدودةً حتى غَمُضت العين وارتخى الجسد وغاب العقل في غيبوبةَ لا يقطعُها سوى ارتفاع أنفاسها أحيانًا وسكونها أحيانًا أخرى، بينما مازال همام يقظًا يتشاور مع رفيقه الذي يوسوس له كيف يخرج من هذه الدار بهذا الختم المعلق حول رقبة أمه بحبلٍ من الصوف الأسود الغليظ... لم تكن كلماتُه لأمه سوى تهدئة لها حتى تثقَ فيه ولو لوقتٍ قصيرٍ وهو ما حدث... فكيف لا تثق فيه وهو ابن بطنها وابن هذه الدارً. انسلَّ كالثعبان بلا ضجيج حتى دخلَ غرفتَها وعلى ضوء هاتفه النّقال رأى الحبلَ الصوف حولَ رقبتها والختمَ يلمع في تلك النقطة العميقة حيث التقاء الرقبة بالنحر، وتعجبَ كيف تناسب حَجم الختم مع عُمق هذه النقطة وكأن أحدهما قد فُصِّل ليتناسبَ مع الثاني فالختم ينتمي إلى هنا ونصف الفدان يسكن ويطمئن هنا... أصابعُه المضطربة تبحث في جيبه عن المقصِّ الصغير... ليس هنا ولا هنا... الأصابع تبحث في لهفة عن أي شيء حادٍّ يصلح للمهمة، ولكن لا شيء... يلعنُ في داخله الأرضَ والمالَ وقطر الندى وعنادَ أمه والنسيانَ الذي جعله لا يستعدُّ لهذه اللحظة. فكر في استخدم ولاّعة سجائره ثم جَفُلَ عن ذلك، ليس خوفًا على رقبة الأم من لسع النار... لكن السخونةَ ستوقظها. أخيرًا وسوس له رفيقُه بقواطعه التي في فمه، بأسنانه فهدأ. اقترب وجهُه من رقبتها حتى امتزجت أنفاسهُما ففزِعَ وجزعتْ شُعيراتُ جسده وانتصبت وسَرَت قشعريرةٌ مخيفةٌ في أقدامه... هذه الرائحةُ ليست رائحةَ أمه... هذه ليست أنفاسَها... بل رائحة قديمة بقدَم عمره المنقضي وأنفاسُ رجلٍ رآه يحتضر عندما كان طفلًا في السادسَة. الوجهُ الذي أوشك أنْ يلامسَهُ هو وجهُ أبيه... يحدِّق في عينيه ويداه تتهيآن للانقضاض عليه. أفقده الهلعُ الإحساسَ بالزمان وخالَ له أنَّ سنوات عمره لم تنقضِ بعد وأنه

مازال طفلًا وأنّ أباه مازال نائمًا سيعاقبه على فعلته. يدفعه فزعُه للتراجع حتى يتجنَّبَ لسعات جريدة النخل الخضراء التي يحتفظ بها الأب خلف السرير... ويقف رفيقُه خلف ظهره يدفعه ويسدُّ أمامه طريقَ التوبة والتطهر من سنوات الجحود... يعيده لزمانه ومكانه ويلقي في أذنه بحديث الإفك... أنّ أباك قد مات وأنَّ الزمانَ زمانُك... ما عليك إلا عَبورُ لحظات خاطفة كخطفة الموت وإنْ سَبَقَها ما أنت فيه من سكراته وعذابه... كَيف لخيْط غليظ من الصوف أنْ يسجنك في فقرك... هوَ قيدُك أنتَ فمزقه. استَحالتْ الأسنانُ شفرةً حادةً قاطعةً ولامستْ الشفاة المرتجفةُ بشرةَ الرقبة الساكنة فقبَّلتها قبلةَ الوداعِ الأخيرة قبل أنْ تحمل اليدُ نصفَ فدان الأرض وتركضَ قدماه خارجةً بلا عودة... تقفز في السيارة وتنطلق هاربةً. أحسَّتْ يامنة فجأةً أنَّ الطينَ الذي تحمله وتزيِّن به رقبتَها قد خفَّ ثقلُه. تحسست موضعَ ملامسة الشفاة، فإذا الحبل مقطوعٌ. بحثَتْ وبعثرت كل محتويات الغرفة الصغيرة و لم تجد ختمها. فعلها الابنُ العاق.. صدَّقه قلبُ الأم فخدعَها ثم انتهك مخدعها وجرَّدها من ختمها، وغدا يجرجها من أرضها وعزوتها. هرولتْ إلى دار الشيخ عزب... صَفَعَت الباب بكلتا يديها... أيقظت البيوت الساكنة وهرع الناس يستطلعون الخبر... ما الذي أصرخَ يامنة منتصفَ الليل وهي التي تسبق أفرخَها في النوم بعد صلاة العشاء؟

– "فعلها الفاسدُ يا شيخ عزب... ولدةُ الطين والندامة سرق الختم وسيبيع الأرض."

***

– "يجب أن ننهيَ كل شيء الليلة؛ فحتما هناك مَن سيساعد أمكَ وسيقومون بالإبلاغ عن سرقة الختم."

– "وكيف سنتصرف يا أستاذ محسوب؟"

– "لن نقوم بالبيع مباشرة للرجل الإنجليزي... من الأفضل أن تكون أنت البائع حتى تستطيع إنهاء البيع له في الشهر العقاري."

– "ولكن كيف؟"

– "كل الأوراق معدةٌ... عقدُ بيع لك من أمك بتاريخٍ قديم... ثم عقد البيع منك للرجل باللغتين الإنجليزية والعربية."

قبل أن يشرق صباحُ يوم جديد كان محسوب وهمام ودينيس، الدردوم الجديد القادم إلى القرنة قد أتمّوا صفقتهم بحضور وتوقيع الشاهدَين طايع وحسان وبمباركة الحاجة قطر الندى. دينيس متعجل الخطوات للإقامة في الأقصر لينضمَّ لهذا المجتمع الغربيِّ المتغطرس الذي اقتطع جزءًا من غرب الأقصر وآخر من شرقها وأقام ما يشبه مستعمرةً منفصلةً عن المدينة تنعم بشمسها وتراثها وتزدري أهلها ولا تملّ من وصمهم بالتخلف والقذارة... وأنهم رسل الحضارة المحاطون بغابة من الريفيين الأجلاف... هم الملائكةُ لا يكذبون ولا يغشّون... يستكثرون على أهل طيبة إرثَهم من أسلافهم ويتمنون لو استطاعوا أن يحملوا معهم هذا الإرث بكل قطعة حجر منقوشة وبردية مكتوبة وجسد محنط يبحث عن الخلود ويأخذوا معه الشّمسَ والهواءَ الجاف... وربما أيضًا بعضًا من هؤلاء الأجلاف ليستدفئوا بأحضانهم القوية... إنّ هذا الجيبَ الذي غُرِسَ في جسد المدينة وما يتحدثون به عمن حولهم ممن يسمونهم

المحليين هو حقا قطعةٌ من الدجل الراقي!

بدأت المجموعةُ في إعداد الرسومات الخاصة بالقصر الجديد... اتفقوا مع المقاولين والمهندسين والعمال ثم بدأوا في الاتفاق على المشروعات التي سيشتركون فيها مع دينيس بأمواله... لكن أحدَهم لم يذهب إلى الأرض ولم يتسلمها دينيس وأشار عليهم حكيمُهم الأستاذ محسوب بالانتظار عدة أيام حتى تهدأ القرنة وتثبُط عزيمة من يتهيأ لإفشال الصفقة ممن يتعاطف مع يامنة.

***

عاد طيب من القاهرة بعد غَسْلِ أحزانه في زحامها وضجيجها. وفي أتون ما يحدث في القرنة لم يلتفتَ أحدٌ أن مروة قد عادت بعده بيوم واحد. وجد طيب يامنة عندهم في الدار طريحةَ الفراش وعلم الخبرَ منَ أبيه... لا تخلو الدارُ من زائرات أما هي فلا تفتح عينيها إلا وجلةً حين تسمع هدير سيارة منطلقة بالقرب من الدار فتخالهم مَن جاءوا ليأخذوا أرضها ويكملوا المؤامرةَ أما طيب فيتشاور مع أبيه عما يمكنهما فعله لتلك المرأة المسكينة.. لا أملَ إلا في شهادة الشهود أنها لم تتنازل عن أرضها حتى كان صباحٌ حين غادرت يامنة الدار وحملتْ معها فأسًا وصرةً بها رغيف الخبز الشمسي واتجهت للأرض... فربما كانت الأيام السابقةُ وهمًا من خيالاتها وأنها استفاقت وعليها أن تستأنفَ حياتها. لكن انسلاخَ حبل الصوف من حول رقبتها واصفرارَ الأوراق الخضراء في الغيط وعطشَ الأرض وتصلبَ حُبيبات الطمي يخبرها أنَّ تلك الأيامَ كانت حقيقةً سوداء... تقرفصت وسط الأرض مُسندةً رأسها على مقدمة فأسها...

- "السلام عليكم يا سيدة آمنة... ابنك همام باع الأرض ونريد تسليمها للمالك الجديد."

حملتْ فأسها وتقدمت نحو محدثها... شابٌ في مقتبل العمر يبدو أنه موظفٌ بإحدى المصالح الحكومية... يحمل بيده بعض الأوراق ومعه دينيس الرجل الإنجليزي الذي تجاوز العقد السادس من العمر وهو أبيض البشرة باصفرار... قصيرٌ، أصلعُ الرأس، وذو نظرات حادة تكادُ تقفز حدقاتُ عينيه منْ خلف نظاراته السميكة. أصبحت يامنة علَى بعد خطوات قليلة منهم.ا.. وجَّهَتْ فأسها ناحية دينيس الذي قفز كالفأر المذعورٌ للخلفَ عشرات الأمتار.

- "اخبر ابن الكلب هذا أني سوف أحُشُّ رقبتَه بالفأس إنْ تخطًّت قدمُه أرضي."

تقهقر الشاب للوراء... تحدث مع دينيس وانصرف الاثنان. قضت يامنة اليوم في الغيط لا تفعل شيئًا... لم تمس رغيف الخبز وكلما مرَّ بها أحدٌ من أهلِ القرنة مصمص الشفاة شفقةً من أجلها، وتهامس بعضُهم أنّ المرأةَ فَقَدَت عقلها بعد أن فقدت أرضها، حتى قاربت الشمس على المغيب وتلوّنت السماءُ بهذا اللون الذي يميل للاحمرار، القابض للصدر والذي يهيئ الكونَ لسواد الظلام حينما جاء الشيخ عزب ليَصطحبها إلى المنزل.

- "ما دُمت قد خرجت من الدار وقويت قدماك فسنذهب صباحًا لنحرر محضرًا بَسرقة ختمكَ، وإن شاء الله ذلك سيوقف بيع الأرض... أما ما تفعلين فلن يُجدِ شيئًا يا يامنة."

هدأت قليلًا حتى صباح اليوم التالي حيث توجهت مع الشيخ عزب وطيب إلى السلطات الرسمية لتحرير الشكوى. لم يستغرق هذا وقتًا طويلًا فقد وجهت يامنة اتهامها لابنها وقصَّتْ ما كان منه في ذلك اليوم المشؤوم. في طريق عودتهم حاول الشيخ عزب أن يهوِّنَ الخَطْبَ عليها فأخذ يقصُّ على ابنه بعض ذكرياته في الصبا وكيف كان شيخ الكتاب يعاقبهم إنْ قصَّروا في حفظ القرآن بأن يضربهم بجريد النخيل الأخضر... من نِسيَ بعضَ الآيات يضربه على باطن كفيه أما من لم يحفظ إطلاقًا ما كُلِّفَ بِهِ يضربه على ظهر كفيه... وبعد أن كبروا وتزوجوا وأنجبوا، احتفظ كل منهم بجريدة خضراء في الدار ليعاقبَ المخطئ من أبنائه. ذكرت يامنة أنَّ زوجها كان يحتفظ بهذه الجريدة تحت سريره ولكنه لم يستخدمها مع همام سوى مرةً أو مرتين... ولكنها قررت أنْ تستغنيَ عنها واعتبرته رجلًا منذ موت أبيه. يستمتع طيب بسماع ذكريات أبيه ويتمنى لو عاشها معه. يشعر أنَّ زمنه قد فقَدَ شيئًا غامضًا تمتع به جيلُ أبيه... يفتش عن هذا الشيء ويتيه بين احتمالات شتَّى... ربما الثقةُ بالنفس التي يفقدها جيله الشاعرُ دائمًا أنه لا يستطيع أن يفعل مثلما فعل السابقون، ويكتفي باستغلال ما تركوه... وربما الحيرةُ الشديدة بين مثلٍ أعلى مفقود ومشوه وبين شراسة المال... وربما أنَّ الحياة اليوم صارتْ أكثر تعقيدًا فلا يستطيع جيله الاستمتاع بوضوح الرؤية كما استمتع بها جيلُ أبيه. بينما الشيخ عزب يواصل الحديث وطيب يغوص في أعماقه باحثًا عما يفقد جيله ويامنة تنصت لصمت طيب وحديث الشيخ، عاد الثلاثة ليجدوا الأرض تحت الحصار. دينيس الذي لم يمضِ على قدومه للأقصر سوى أيام قليلة وهو محاط بما يزيد على عشرين من الأوروبيات والأوروبيين... رُسُلُ التنوير وقد جاءوا لينقذوه من الأجلاف المخادعين... الملائكة الذين لا يكذبون وقد جاءوا لينقذوا

الرجل الصالحَ من شيطانة الغرب التي تريد قتله وحشَّ رأسه بفأسها!. لحظةٌ فارقةٌ جليةٌ من عمر القرنة بل الأقصر كلها... فالجيبُ الذي غُرس في جسد المدينة ونما في غفلة من عقل وروح أهل طيبة يكشف عن وجهه بلا ابتسامات باهتة زائفة أو كلمات المجاملة البلهاء عن الحضارة والشمس والدفء... فالآن همْ يملكون قطعةً من كل هذا ويشعرون أن تلك القطعة هي ضوء القمر في ظلمة السماء... تعجُّ مجالسُ سَمَرهم بالحكايا عن أجلاف الأقصر الغلاظ الذين لا ينفكون يدعون في حيلهم للاستيلاء على أموال هؤلاء المتَحضرين الذين يعطونها شفقةً لحالهَم... سقط الآن القناعُ عن الوجه الأصفر والنفس العنصرية والنظرة الدونية إلى كل المحليين. ما الذي جعل كل هؤلاء يلتفون حول رجل لم يمض على قدومه سوى أيام معدودة غير العنصرية البغيضة... يودون لو حملوا معهم شمس الأقصرَ إلى عواصم أوروبا وتركوا هؤلاء في العراء... يشترون السلع المصرية المدعمة ويتأففون من الريفيين بجلابيبهم الفقيرة ونظراتهم الفضولية.

من الأحق أن يشعر بالغربة في شوارع شرق الأقصر؟ ريفيٌّ قادمٌ من غربها لزيارة أبي الحجاج والتبرك به وزوجتُه التي ترتدي الملاءةَ السوداء والحذاءَ الأسود البلاستيكيَّ، أم دردومٌ من إنجلترا كآلان ودينيس وعجوزٌ شمطاء مثل فيونا؟ نظراتُ السخرية في عيون أباطرة المال الأقصريين ونظراتُ الريبة في عيون أفراد شرطة السياحة ونظراتُ الاستعلاء في عيون متسكعات أوروبا على كورنيش الأقصر والموسيقى الغربيةُ المنبعثة من الفنادق والكافتريات المتناثرة هنا وهناك... كلها تجعل أيًّا من هؤلاء الريفيين لا يشعر بالغربة فقط بمجرد رسوِّ المعديَّة أمام معبد الأقصر، بل ويشعر برغبة في الهروب إلى ملاذ آمن يحميه من كل هذه العيون ويمنحه بطاقةَ انتماءٍ لهذه السماء وتلك الأرضَ.

جاء هؤلاء يحيطون بدينيس ويحيط بهم العَسكرُ المغلوبون على أمرهم والذين لا تختلف وجوه أمهاتهم عن وجه يامنة. لم يكن الأمر في حاجة للتوضيح... سيأخذون الأرض ويسلمونها لدينيس. تنظر يامنة إلى الشَّيخ عزب وطيب في ذهولٍ وضعفٍ وانكسار... لم تدمْ الطمأنينة التي غَشيتها وهم يقدمون شكواها طويلًا. هرع أهل القرنة إلى المكان ولكنهم قنعوا بمتعة المشاهدة والشفقة العاجزة عَجْز حضارة فقدت الثقة في نفسها وأقنعوها بالضعف عبر عقود طويلة من قلة الحِيلة وتفويض الأمر كذبًا لله حتى لا تشعر الأنفس بتأنيبِ الضمير وحتى تستطيع الأجساد التنعم بالنوم. فقد اعتنقت العقول دينًا جديدًا، أركانُه وعُمُده كلماتٌ يرددها الكبير والصغير... لا نستطيع... لا يقدر على القدرة إلا الله... نريد أن نُطعم الأبناء... ولا بأس أن نربيهم على الانسحاق وكسر الإرادة والنوم مظَلومين لا ظالمين. توهَّمتْ شجرةُ الأثل أن الأشجار التي زحفت إلى غيطها هذا اليوم ستحيط بها وتنغرس معها ولن يستطيع اللصُّ القريب واللص الآخر القادم من بعيد أن يغتصبا أرضها. انطلقتْ إلى غيطها... افترشتْ الطين... لن تخرجَ وستقاوم ولن يحملوها إلا جسدًا ميتًا كما أوصاها صاحب الأمانة.

أحاط دينيس ومن جاء معه بالرجل الكبير صاحب السلطة واتخاذ القرار المسؤول عن تسليمهم الأرض... ارتفعتْ أصواتُهم باللغاتَ المختلفة ولا حاجةَ لمن يترجم كلماتهم التي كانت مزيجًا من السباب واللعنة على هذه المرأة الشيطانة... المجنونة... الكاذبة... المخادعة... التي تهدد الاستثمار وتدفق رأس المال الأجنبي. انفعل الرجلُ الكبيرُ المغلوبُ على أمره... وفي محاولة أخيرة لصون ما تبقَّى من هيبته أمام قومه، فكل ما استطاعه أنْ يطلبَ منهم في حزمٍ ألا يصطدموا بأحدٍ من

أهل القرنة وأنْ يتنحُّوا جانبًا ولا يقف معه إلا المشتري ثم تقدَّمَ هو ناحية الشيخ عزب الوحيد الذي يعرفه بين الواقفين...

– "يا شيخ عزب، أبلِغْ هذه المرأةَ المجنونةَ... إننا سنمهلها ثلاثَ ساعات قبل تسليم الأرض بالقوة... هذه المهلة منِّي أنا شخصيًّا حتى تستفيدَ من زرعتها قبل تسوية كل شيء بالأرض... وحتى نصرِفَ كل هؤلاء من هنا دونَ احتكاكٍ."

– "لكن يا باشا هذه المرأةُ صاحبةُ الأرض، وقدمت شكوى صباح اليوم عن سرقة ختمها."

– "لا يا شيخ عزب، صاحبُ الأرض هو ابنُها همام الذي اشتراها منها منذ عدة أشهرٍ... وقد باع الأرض لهذا الإنجليزي القصير."

– "كل من في القرنة يعلم القصة وأنها لم تبع أرضها وإنما قد سُرِقَتْ منها."

يبدو الضيق على وجه الرجل الكبير ويفرك يديه في عصبية.

– "اسمع يا شيخ عزب، قصةُ السرقة التي تتحدث عنها ليس لها وجودٌ الآن... ويمكنك أن تسوِّيَ هذا الأمر بين هذه المسكينة وابنها... أما نحن فسوف نتسلم الأرض بعد ثلاث ساعاتٍ كما أخبرتك، وأتمنى ألا تضطروني لاستخدام القوة... مفهوم يا شيخ عزب؟"

– "إذن لا داعي للانتظار ثلاث ساعاتٍ، ولا حتى ساعةٍ واحدةٍ."

تقدم الشيخ عزب وطيب ناحية يامنة... أحاطاها... مدَّا إليها أيديهما... لقد انقضى الأمر وضاعت الأمانة وحانت لحظة اجتثاث

شجرة الأثل العجوز من الطمي قبل أن يلتهمها النملُ الأبيض فتسقط. قرأتْ يامنة في عيني الشيخ عزب كلمات العجز فاستسلمت وألقتْ النظرة الأخيرة على الأوراق الخضراء... شَبقَتْ أنفُها لرائحة الطمي وسالَ لُعابُها لقضم قطعة منه واجتاحتها مشاعرُ الوَحَم مرةً أخرى... هذه المرة تحمل طفلاً من الحزن والعجز لنْ تلفظَه بطنُها إلا عندما تلفظ الحياة... توجهت معهما إلى دارهما وهَدَرَتْ الجرافات بصرخة الموت والقتل... اغتالت اللونَ الأخضر في لحظات قليلة قبل أنْ يقفزَ دينيس ومن معه إلى الأرض يحتفلون بلحظة انتصارٍ مسروقة ويعلنون سقوط حضارة منكفئة فاقدة الثقة... واتفقوا على الاحتفالَ الأكبر في أحد فنادق الأقصر مساء.

***

في مَرْقَص أحد فنادق المدينة اجتمع أفرادُ جاليات الغرب المختلفة... وعلى ضجيج الموسيقى الغربية يرقص الجميع ويغنُّون وأعلنوا دينيسَ نجمًا للحفل... يشربون في نخبه ونخب انتصاره وانضمامه لزُمرتهم. شربوا حتى ثملوا واختلطتْ الأجساد في رقصة محمومة. لعبتْ الخمرُ بالرؤوس والتفوا حولَ الدردوم الإنجليزي يسألُونه عماً يخَطط له في الأقصر... أعجبه التفافُهم حوله فأخذ يجبُّ من كؤوس الخمر وهاجَ وماجَ وأخذ يتكلم وكأنه يصرخ...

– "ذكرتني المرأةُ المجنونةُ بثوبها الأسود الملطخ بالطين وعينيها الضيقتَين بالخفاش... هل أخبرتُكم بقصة الخفاش الأسود؟"

– "لا... لا لم تخبرنا... هيا يا دينيس، احكِ لنا قصةَ الخفاش."

- "في حديقة منزلي كانت هناك حجرةٌ صغيرةٌ... أردتُ أنْ أُجَدِّدَ الحديقةَ وأزيلَ تلكَ الحجرة... لكنهم منعوني حتى لا يموت الخفاش... فتركتُ له الحجرةَ وبعتُ المنزل... لكنهم هنا أفضل... فقد طردوا الخفاشةَ في ساعاتٍ قليلة."

- "فلنشربْ في نخب الخفاش."

- "في نخب الخفاش."

طردت الخمرُ ما في جوفه وأجوافهم مِن كلمات بذيئة وصفوا بها الثوبَ الأسود القذر للمرأة الخفاش وأهلَ القرنة الّذين كانوا هناك يشاهدون ما يحدث... وجوهَهم الكالحة الكادحة التي أحرقتها الشمس... رائحةَ العرق المختلطة برائحة الطين والزرع.

للحضارة وجوهٌ شتّى وجسدٌ مطاطيٌ وأقنعةٌ مستعارةٌ زائفةٌ... فهناك في بلاد الصقيع والضباب يُصبح لخفاشٍ وحيد يعيش في حجرة ضيقة قيمةٌ عظمى هي قيمة الحياة التي تنتفضُ من أجلها أجهزةٌ وأشخاصٌ ومنظماتٌ... ويعجز صاحبُ الحديقة عن هدم تلك الحجرة في حديقته. وهنا - في بلاد علّمتْ العالم يومًا كيف يكتب ويشرب ويأكل وينحت الحجرَ وينقشُ عليه ويقهر العجز - لا قيمةَ لحياة آلاف البشر. هناك الحضارةُ هي الإنسانُ وحياتُه وحريته... وهنا قد تكون الحضارةُ هي حمايةُ بقايا تمثال مدفون في باطن الأرض ولو تمزّقتْ حياة أسَرٍ مطمئنة ضاربة بجذورها لآلافِ السنين. أصبح العالم قريةً صغيرةً ولها مجلسُ إدارة يُدير شؤونَها يتألف من أعضاء أقوياء... اختاروا أعوانَهم وبعثروهم في أنحاء القرية... منظماتٌ مبتسرةٌ تنفذ قرارات مجلس الإدارة. تتقزّمُ تلك المنظماتُ في جزءٍ من القرية فلا تقوى إلا علَى الصراخ وتستأسِدُ في

أجزاء أخرى فتغدو رغباتُها ووِصاياها كتابًا مقدسًا وجبَ على ساكني هذهِ الأجزاء أنْ يؤمنوا به ويصلوا بآياته... مجلس إدارة عَدْلٍ للأقوياء... ظالمٌ للمخدوعين وفاقدي اليقين أنَّ أقدامَهم للسير بها والوقوف عليها وليست زوائد عظمية.

# المريس والضبعية

- "الحاجُّ عز الرجال عمدة المريس يدعوكم لحضور ليلة الشيخ ياسين."

سيارةٌ تجوب شوارع قريتي المريس والضبعية وتعلن بمكبرات الصوت أن الدعوة عامةٌ للجميع وهي الليلة التي اعتادها أهل الأقصر كل عام في منتصف شهر شعبان ليروا بلبلهم الصدّاح... أميرُ المداحين وأمير قلوب الصعايدة... الصوتُ الذي أجمعوا على حبه، أميُّهم ومُتعلمهم. يُنصَبُ سرادقٌ كبيرٌ ويتجاوز الحضور العشرة آلاف كل عام وتنتصب سماعات الصوت العملاقة في الحقول وتضيء الكشافات الضخمة ذات اللون الأبيض ليلَ القرنة حتى يصعدَ المسرحَ الخشبيَّ المرتفع أميرُهم ذو الوجه الأبيض الممتلئ الذي تكسوه المسحة الصوفية الهادئة وتُزين رأسَه العمامة البيضاء ويضع حول رقبته وعلى كتفيه تلك الكوفية المزركشة التي تتناغم ألوانها مع لون الجلباب البلديّ الذي يرتديه... ترتفع أصوات الرَقِّ والدف وقد أضاف إليهما أخيرًا آلتي الكمان والعود. الصوتُ الصوفيُ الشجيُ ينتشر في الحقول فيفترش أوراقَ وأفرع الأشجار الساهرة

التي تهتز مع نسمات الهواء وترقص كما ترقص الأجساد المتمايلة مع نغمات الموسيقى الصوفية وقصائدها التي كتبها المتصوِّفة الكبار كابن الفارض وأعادَ لها صوتُ الشيخ ياسين الحياةَ بعذوبته... وردَّدها معه أهل الصعيد صغارُهم وكبارُهم. يعانق صوتُه الجبلَ الغربيَّ ويرتد صداه فيسمعَه كل من في المدينة. وكلما تقدَّم في شَدوه أغمض عينيه وغاب عمن حوله وغابت معه العقول وارتجفت الأجساد وصعد إلى جواره محبوه من مجاذيب الصوفية الذين يهرولون وراءه من بلدةٍ لأخرى وتركوا الدنيا وزهدوا فيها...

وقلوبُ العارفينَ لها عيونٌ

ترى ما لا يراه الناظرينَ

وأجنحةٌ تطير بغير ريشٍ

إلى ملكوتِ ربِّ العالمينَ

تلك كانت كلماتُ القصيدة التي اختار أنْ يشدوَ بها وربما قد ألهَمَه لذلك ذاك الفضاءُ الفسيحُ حولَه ورائحةُ الحقول. وهي القصيدة التي يعشقها العمدة... ذلك الشابُ الصعيديُّ المتعلم الذي لم تغتلِ سنواتُ إقامته في ضوضاء القاهرة مسحةَ الصوفية من روحه. لا أحدَ يدري لماذا يعشق الصعايدة الشيخ ياسين... ربما حسب ما يعتقدون أنّ أصول معظمهم عربيَّةٌ من الصحراء... والصوفيةُ والصحراءُ رفيقان... الاتساع بلا نهاية... السماءُ ونجومُها في ليل الصحراء المظلم وتحليق الأرواح في الأفقِ البعيد... قسوةُ عيش مَن اتخذ من الصحراء وطنًا ومَن اتخذ من الزهد مذهبًا. فهل امتزجت ثقافةُ الصحراء بدماء أجداد الصعايدة

وانتقلتْ عبر الأرحام من جيلٍ إلى جيلٍ حتى يخال المرءُ أنَّ الطفلَ يولد في الجنوب صوفيًّا؟ هم أنفسُهم لا يشغلهم لماذا وكل ما يعرفونه أنَّ أرواحَهم قد تعلّقت بهذا الأسيوطيِّ الأزهريِّ ووجهه وصوته وطريقته في لفِّ عمامته البيضاء وعلاقته بامرأة عجوز فقيرة تعيش في خُصٍّ بأحد الحقول... ترفض أنْ تنتقل لمنزل أقامَه لها الطيبونَ من الأهالي... حين جاء الشيخُ أول مرةٍ لإحياء ليلة النصف من شعبان، راقته الخضرة والهواء فسارَ بين الحقول... حتى إذا اقترب من خصِّ العجوز جفَّ جوفه واشتهى شربةَ ماء طلبها منها. وبينما تبحث المرأة عن سَطل الصفيح (إناء صغير) الذي تشرب منه رآه بعضُ الرجال فعرفوه ورحبوا به وأرادوا أنْ يضيِّفوه عند أحدهم ليشربَ محتجِّين بعدم نظافة الإناء... رفض بأدبٍ وأصرَّ أن يشرب مما ستحضره المرأة...

– "يا إخواني، هذه رسالةٌ لا بد أن آخذها، فدعوني هنا قليلًا."

سَقَته بيدها وجلس معها أمام الخصِّ قليلًا وطلب منها أنْ تدعوَ له.

– "في حياتي لم أرتوِ مثلما روتني شربةُ الماء من وليّة الخص."

ثم دَأبَ على زيارة المرأة كل عامٍ كلما حضر لإحياء نفس الليلة حتى ماتت المرأة.

– "لقد أخذتُ بعض البركة من عندكم."

لم تمُت القصة التي يتناولها مريدوه فيما بينهم وأصبحت ليلةُ قدوم الشيخ مثل مسجد المقشقش وأبي الحجاج... علامةً في تاريخ المدينة الحديث. قبيل صلاة الفجر أنهى الشيخ الليلة بقراءة الفاتحة للأولياء وأهل القبور... ثم صعد بعده مباشرة عمدة المريس إلى المسرح كعادته لتوجيه الشكر للشيخ ولكن هذه المرة كان صعوده لسبب آخر...

- "باسم أهالي قريتي المريس والضبعية وغرب الأقصر وشرقها نشكر أمير المداحين مولانا الشيخ ياسين لحضوره ووفائه بموعده كعادته... أعاد الله علينا وعليكم الأيام بخير... كما أتوجه بنداء لعائلات قريتي المريس والضبعية للتواجد غدًا بعد صلاة العشاء بمركز الشباب للأهمية... فنرجو حضورَ ممثلين لكل العائلات وسيكون معنا الشيخ عزب من القرنة والأستاذ طيب ابنه وابننا."

تراكُم الأحزانِ والأحداثِ الصاخبةِ في الأيام السابقة لَمْ يمنع الشيخَ عزب ولا ابنه طيبَ من حضورِ ليلة الشيَخ ياسين أو الحضرة كما يسميها الشيخ عزب الذي كان يصطحب معه ابنه منذ صغره لهذه الليلة وغيرها من ليالي الذكر... يتذكر طيب حين كان أبوه يحملَه فوق أكتافه ليرى المسرح المحاط بعدد ضخم من العمامات الضخمة والجلابيب المتراصَّة فكان يحاول أنْ يمْرُقَ بينَ الصفوف ليرى صاحب الصوت الذي يسمعه... لكنه كلما تخطى صفًا وجد آخر حتى يعود محبطًا لأبيه الذي يتبسم له ثم يحمله فوق كتفيه. صافح الشيخ عزب وطيب العمدةَ شاكرين دعوته... دعاهما للمبيت والاستئناس بصحبة الشيخ حتى الصباح ولكنهما اعتذرا رغمًا عنهما حتى يتمكن طيب من اللحاق بعمله على وعدٍ بالحضور غدًا مساءً للمشاركة في اجتماع أهل القريتين.

***

صرخةٌ مكتومةٌ في الصدور... بَعثَرةُ الأُسَرِ هنا وهناك.. . إثراءُ الأباطرة وخلق أباطرة جُدد في الأقصر... نزيفُ التاريخ القديم يقوده الخراتيتُ الكبار... عَملياتٌ بتر الأعضاء وتفريغ الأقصر تتقدم من مرحلةٍ لأخرى... القادةُ ينتفخون انتشاءً بالنجاح المزعوم لتحويل المدينة

إلى متحف كبير مفتوح للأموات... تهاوت حضارةُ الأقصر الحديثة تحت المعاول واستحالتْ أكوامًا من التراب. كل ذلك أغرى المغامرين والمنتفعين بالمزيد فاتجهت أنظارهم جنوب الأقصر حيث أحد الأطراف مازال ساكنًا مطمئنًا يزرع ويقلع وظنّ هذا الطرف أنه في مأمن مما يحدث في الشمال حتى كان يومٌ اضطربت فيه قريتي المريس والضَبعية حين مَرَقتْ إحدى الشائعات إلى هناك... قرارٌ اتخذ بليل... مئاتُ الأفدنة الخضراء أصبحت في مرمى قذائف النار وهدفًا للمساومات. فقد اختار الأباطرة القريتين لإنشاء مراسٍ للفنادق العائمة وإقامة منتجعات جديدة. رائحة المال تزكم الأنوف... تتهيأ قطر الندى وأعوانها لغزو القريتين بحقائب المال وقرارات التهديد. لا يعرف أهلُ القريتين غير الزراعة حرفةً وموردًا للحياة... فماذا هم فاعلون إنْ خُطفَت منهم الأرض؟ التهبت شراهة الأباطرة لقضم قطعة كبرى من الغنيمة فبعثوا بكشّافهم وجهّزوا أموالهم. علم العمدة الصعيديُّ بالخبر فاتخذ قراره ودعى كبار العائلات للاجتماع في مركز الشباب كما دعى كبار عائلات القرنة وعلى رأسهم حكيم قومه الشيخ عزب. يعيش في قرية المريس مئات الأسر وبها مدارسٌ ومعاهدُ أزهرية ومركز شباب متطور به صالةٌ مجمَّعةٌ للألعاب الرياضية. عمدةُ القرية شابٌّ صعيديٌّ متعلّمٌ نهض بقريته وأقام مشروعًا حضاريًا لمحو أمية الكبار الذين لم يلتحقوا بالمدارس في صباهم... وكانت القرية على وشك أنْ تنفض عنها الكثير من الضباب الذي يلفُّ مُعظَم قرى الجنوب. يفخر العمدة ككلّ أهله بطيب أصله وعراقة جذوره... وتمرّد على قَدَريَّة أهله في مواجهة مصائرهم وفي تمرده تقف خلفه عائلتُه وعترتُه.

– "علمتُ أنهم يريدون نزعَ ملكية أراضينا الزراعية لإنشاء مراس للفنادق العائمة ومنتجعات سياحية، وأنا لنْ أتركَ أرضي وأرضَ عائلتي... يجب أن نتفق اليَوم على رأي واحد ملزم لنا جميعًا.. فأنتم مزارعون وأرضكم هي ما ستتركونه خلفكم لأبنائكم. لا يفرح أحدكم بحفنة من المال ثم ينضم بعد ذلك للعاطلين. نحن هنا لا نشتري شيئًا... نطحنُ دقيقنا ونأخذ طعامنا من الأرض. لقد اتفقت مع شباب القريتين المتعلمين على تكوين لجنة شعبية للدفاع عنِ أراضي قريتي المريس والضبعية، وحتى تكون لهذه اللجنَة قيمةٌ ووزنٌ نريد أن نجمع توقيعات كل من له ملكية ولو كانت قيراطًا واحدًا."

– "نحن كلنا مثلك يا حاج، نرفض أنْ نترك أرضنا وسنوقِّع على ذلك."

– "لن نوقع فقط، بل سنحمي الأرض بسلاحنا وأجسادنا."

– "يا إخواني، نحن لا نريد أن نجعل منها معركةً، ولكننا سنتبع الطرق القانونية ومعنا الأستاذ فراج المحامي ليخبرنا ما يحدده القانون لنا أو علينا."

– "للدولة الحق في نزع ملكية أي أرض إذا كان الهدف منها منفعةً عامةً مثل إنشاء الطرق والكباري وتوصيلِ المرافق... أما ما يتحدثون عنه فهو مشروعٌ استثماريٌّ ويمكنكم الرفضَ حتى لو تمَّ اتخاذ قرار... وإنْ اتفقنا على الرفض فسنبدأ خطوات متدرجة أولها جمع التوقيعات التي تحدث عنها العمدة... وقد قمتُ مع مجموعةٍ من الزملاء بكتابة الصيغة القانونية للقرار."

أشار العمدة إلى أحد الأركان حيث يجلس بعض شباب القرية وأمامهم قرار الرفض... تدافع الحاضرون إليهم... وقّع بعضهم واستخدم بعضهم الأختام التي يعلقونها في حافظاتهم الجلدية الكبيرة والتي يحتفظ كل منهم بها في جيب الصديري أسفل الجلباب. كانت حصيلة اليوم الأول عدة مئات من الأسماء التي تمثل معظم العائلات على وعد منهم بإرسال أفراد أسرهم حتى تُمثل التوقيعات كل من يعيش بالقريتين وليس فقط أرباب العائلات. وكان الهدف النهائي هو جمع توقيع ما يقرب من خمسة آلاف فرد يشكلون تقريبًا كل أهالي القريتين. بعد أنْ هدأت الحركة وبدأ انصرافُ الموقعين، اقترب طيب من العمدة وهمس في أذنه سائلًا إنْ كان سيُكملَ المسير في الطريق لنهايته؟

- "إنْ قرروا حرث محاصيلنا عنوةً، فسيضطرون أنْ يحرثوا معها دماءً وعظامًا لأننا لن نترك الأرض."

الجسدُ المترهّلُ الذي شاخ مازالت تنبض أطرافُه بالحياة ومازال الدم الجنوبي فائرًا في العروق لم تهدّئه القصائدُ الصوفية القدرية أو يُخمد فورَته شدو الشيخ ياسين بالأمس... فهم صوفيون في هوى الفأس والمحراث... امتزجت خلاياهم بالحليب الطازج من البقرة أو الجاموسة كل صباح حين يلتفّ أطفالُ العائلة حول الطبليَّة الخشبيَّة العتيقة المنخفضة وتُفتت الأمُ لهم قطعَ الخبز الشمسيّ في سُلطانية كبيرةَ وتُغرقه بالحليبَ الساخن فيدفئهم في صباح الشتاء وهم يسيرون بين الحقول في رحلتهم اليومية للمدرسة أو الكتاب أو المعهد الأزهري... لا يشعرون بلسعة البرد التي ترجف الأجسادَ الهزيلةَ لأطفال المدينة... قطعةُ الخبزِ البتّاو الأسمر والمش المُعتّق في الجرار أكثر من عام والبصلُ الأخضرُ هي سرُّ الأسرار في غذاء المصريين الذين عاشوا هنا منذ آلاف السنين وحتى الآن فزرعوا

وبَنوا وشيَّدوا وأبدعوا بعد أنْ أكسبَتهم طاقةُ هذا الغذاء مناعةً ضد لهيب الشمس. ألا يقرأ من يتخذ القرار تاريخَ المصريين قبل أنْ يسوقوهم؟ أما قرأوا شهادةَ الغابرين التي أودعوها مقابرَهم حتى يبرأوا من ضعف خَلَفهم؟ فلاحٌ عاري الصدرِ يحرُثُ الحقلَ في صيف حارقٍ... وحجَّارٌ مصريٌّ عاري الصدر يقطع بساعده أحجار الجرانيت... كان هؤلاء يأكلون كما يأكل أهل المريس والضبعية وغيرهم في ريف جنوب مصر. إنَّ أطفالًا يُسقيهم وطنُهم لبنًا مخلوطًا بمسحوقِ السيراميك لنْ يقدروا يومًا أنْ يقدموا له شيئًا... وإنَّ وطنًا لا يريد مَن تولّوا شأنَه أنْ يتركوا بَقايا النبتة القوية مغروسةً في طينه سيتسوَّل يومًا جيلًا يحفظ له قامَته.

- "يا شيخ ،المالُ لا يخلق رجالًا... وأنا أريد لأبنائي أنْ يصيروا رجالًا من بعدي... المسألة ليست فقط الأرض."

- "أعلم يا ولدي، ولا أتمنَّى أنْ يصيرَ في قريتكم ما صار في بعض قرى غرب الأقصر... يجب أن تحفظوا لها هويتها... إنَّ بعض أولادنا صاروا مُسوخًا يلهثون وراء المال حلالًا كان أم حرامًا ويبيعون أنفسهم من أجله... لقد بارَت البنات وخربت عقول الأولاد."

***

أدركت الأميرة قطر الندى بحنكة السنين ومخالطة الكبار أنَّ عملية المريس هي آخرُ قطرة بقيت في الكَأسَ الذي عبَّتْ منه كثيرًا مع فريقها فاتخذت قرارها بمغادرة الأقصر بعد أنْ تُفرِغَ ما في الكأس كله... تابعت أخبارَ العمدة واجتماعَه وجبهَته وقرارَه... اجتمعت مع كل أعوانها... لم تخبرهم بقرارها في المغادرة حتى لا يتفرَّق شملُهم وتلعب

برؤوس بعضهم الأطماع فيحاول أنْ يقضمَ بمفرده... لابد أنْ يظلَ ذاك القيدُ الحادُ الناعمُ بيدها للنهاية... بل ووعدتهم بمضاعفة نسبة كلٍ منهم فالصفقة كبيرةٌ وليست قطعة أرض سيشتريها أحد القادمين من بعيد بل وطنٌ صغير. أتى بعضِ الديناصُورات الكبار من العاصمة تسبقهمً سِيَرُهم وأفكارُهم وأرصدتُهم المكدَّسة. لن يستطيعوا شيئًا مع الأهالي حَتى وإنْ تترّسوا خلف قرارٍ رسميٍّ... لابد وأن يلجأوا إليها... وهي في انتظارهم.

– "اتركوا العمدةَ لي. أنا من سيتحدث معه. الأستاذ محسوب عليك التفاهم مع المحامين الذين اختارهم للعمل معه... أما طايع وحسَّان ورجالكما فعليكم الاتصال بكبار العائلات ويمكنكم حتى أنْ تستضيفوهم ليرَوا أعمالَكم ومشاريعَكم في الأقصر وعرض المشاركة على أصحاب الملكيات الكبيرة منهم ليكون حافزًا لهم للبيع."

– "لكن يا حاجة... المحامون من شباب القريتين ولا أظنهم يتخلُّون عن أهلهم."

– "لا تجعلني أغيِّر رأيي فيك يا أستاذ محسوب... فلكل رجل ثمنٌ لشرائه أو حجةٌ لإقناعه... وما عليك إلا أنْ تُحدِّدَ الثمنَ المناسبَ أو الحُجَّةَ المناسبةَ مع الشخص المناسب... اجمع المعلومات التفصيلية عنهم قبل أنْ تتحدث مع أي منهم."

بينما يسير الاجتماعُ الهادئُ لترتيب الأوراق بكافتريا أحد فنادق الأقصر وتصدَحُ الموسيقى الغربية في أرجاء المكان الذي يسبح في الأضواء، كان هناك اجتماعٌ آخر يجمع العمدة بأحد المسؤولين. لم يكن مسؤولا بيروقراطيًا عاديًا بل أحد قادة الإدارة العظمى التي تحكم

البلاد... تلك الإدارةُ التي تتغلغلُ وتسيطر على كل مناحي الحياة... لا يتمُّ تعيين أحد في أي وظيفة كبُرَت أو صَغُرت إلا بمباركتها، أساتذةُ الجامعات، الموظَّفون، العُمَد، مشايخُ البلد وأئمةُ المساجد، الصحفيون، الأطِباء، المرشدون السياحيون، المهندسون، المدرسون، النُظّار، الخفراءُ وكل من يعيش في مصر يخضع لمشيئتها وقرارها. وبين اتهام النخبة لها بأنها أفسَدَت الحياةَ المدنية في دولة منشأ الحضارة الإنسانية وبين دفاع قادتها واقتناعهم الذي برهَنَته بعضُ الأحداث أنَّهم يحفظون للوطنَ أمنَه واستقرارَه، فقد استمرت تلك الإدارة في ممارسة دورها بفعل الأمر الواقع وأصبح وجودُها ودورُها من مفردات الحياةَ في مصر. و لم يكن لاجتماع مثل الذي تمَّ في مركز الشباب أنْ يغيبَ عن أعيِن قادة الإدارة... استَدعوا العمدةَ للقاء أحد مسؤوليها... أخبر الرجلُ رجالَه وعشيرَته بالأمر ثم توجَّه بمفرده للقاء المرتقب.

بدأ المسؤول بارتداء القناع التقليدي الذي يظهره في موقفِ المتفهِّم بل وأحيانًا المتعاطف مع مَن يحادث حتى يطمئنَّ ويبوحَ بكلِ ما لديه بفعل حفاوةِ اللقاء وقناع السكينة... والجنوبيون بطبعهم يفضلون الخطوطَ المستقيمة في الحوار... لا تعرف عقولُهم المنحنيات ولا تجدُ دماؤهم الحارةُ سببًا في إظهار ما يخالف ما بداخلهم.

- "ما هو الموضوع يا عمدة؟ وما تلك التوقيعات التي تجمعها من أهل القرية؟"

- "لا أظن أن هناك شيئًا خافيًا عنكم... فأنتم تعلمون وأنا أعلم أنكم تعلمون."

- "ولكنك العمدة."

- "وأنا أيضًا عضو في الحزب، ولكني قبل ذلك مزارعٌ صعيديٌّ ولي ولعائلتي أرضٌ لا نريد أن نتركها."

- "ألا تعلم أنَّ القرارَ بإقامة مراسٍ للفنادق العائمة ومنتجعاتٍ صادرٌ من رئاسة الوزراء؟"

- "أعلم، ولكني أعلم أيضًا أنَّ قرارات رئاسة الوزراء ليست قرآنًا مقدسًا... يمكن إلغاؤها واستبدالها إنْ ثبت عدم جدواها أو تضاربها مع مصالح الناس والبلد."

- "وما هو هذا التضارب؟"

- "الحقيقة الواضحة أنَّ المنفعةَ هنا ليست عامةً بل مشاريع خاصةً يمكن إقامتها في أي مكانٍ آخر بدلًا من تبوير مئات الأفدنة الزراعية الخصبة."

- "المشاريعُ المقترحةُ ستنقل قريتَكم لمرحلة متقدمة من الرقيِّ، وستخلق فرص عملٍ للشباب... أليست البطالةُ هي مشْكلة الصعيد الكبرى؟"

- "ولكنها ستجعلنا جميعًا نتنطَّع أمام الجمعيات الاستهلاكية والمخابز لشراء ما كنا نزرعه وإنْ كنتم ستخلقون مائة فرصة عملٍ فسَتُضيفون ألفَ عاطلٍ جديد للطابور الجديد... مَن قضوا عُمرَهم يزرَعون لن يكونوا مؤهلين لفرَص العمل الجديدة."

- "هناك أهدافٌ عامةُ تخص الدولة، فالسياحة هي أهم صناعات الحاضر والمستقبل وتُدرُّ دخلًا من العملات الأجنبية لإقامة بنيةٍ أساسيةٍ

لكل قرى الصعيد."

– "نحن لسنا ضد أهداف الدولة، ولكننا نعرف أنَّ هذه الصناعة هشةٌ، لا نملكُ أقدارَها في أيدينا... وإن كان هناك مَن يعمل بالسياحة فمن دواعي العقل والمنطق أن يكون هناك من يُنتج... لماذا تريدون أنْ تقتلوا كل بقعة إنتاج في البلد ثم ننتَظرُ مَن يأتي ليهبنا العملةَ الصعبة، وقد لا يأتي لأسباب لا تُخصنا... أنا لا أدافع عن قضية شخصية بل عن حق البلد وحق أولادي أن يكونوا رجالًا منتجين يحفظون للوطن كرامَته."

– "اسمعني جيدًا يا عمدة... أنا قضيت سنوات من عمري في كثير من محافظات الصعيد وأتفهَّم موقفك وأعجبتني صراحتك وسأكونَ واضحًا معك... سيتم تنفيذ القرار فلا أنتِ ولا أنا نملك تعطيله... ولكني أريدك أن تكون فطنًا ولا تخسر كلَّ شيء بدايةً من منصبك ومكانتك في الحزب... مازَال أمامك وقتٌ طويل قبل التنفيذ ويمكنكم أنْ تُراجعوا موقفكم قبل أنْ تجدوا أنفسَكم في مواجهةٍ محسومةٍ ولن تكون أَبدًا في صالحكم."

– "أيمكنني المغادرة الآن؟"

– "نعم."

***

فتَّشَتْ قطر الندى في خلايا عقلها فتذكَّرت فريستها (أبا المجد)... هل يمكنها أنْ تُعيد الكرَّةَ مع ذلك العمدة الشاب... الصعيديِّ الثائر. نظرَتْ في المرآة تتأمل عينيها ووجهها. تعلم أنْ عينيها سرُّ فتنتِها

وحيويتِها... مَسَحت بيديها علي شعرها الأسود الناعم الذي يحيط بوجهها وينسدل على كتفيها. قليلٌ من الرتوش قد يلزمُ لغزو الرجل... فَتَحَتْ خزانة ملابسها... نحَّت كل الفساتين جانبًا ووقعت عيناها على عباءة سوداء ضيقة تزينها بعض الخطوط الحمراء. ارتدتْها... نظرَتْ في المرآة مرةً أخرى. نعم، هي الاختيار الأفضل والأجمل... فقد رأت أمامها امرأةً متفجرة الأنوثة في عباءة تشي بما تحتها أكثر مما تخفي... لنْ يجدَ رجلٌ صعيديٌّ في أعذب أحلامه وأكثرها إبداعًا وخيالًا أنثى أكثر فتنةً وكمالًا مما ترى الآن. طلاءٌ شفاف يتناغم مع الخطوط الحمراء... شعرٌ أسود يكمل فتنة الجسد... بعضٌ من العطر الفرنسيّ الأنثوي تتكسَّر أمامه إرادة الرجال.

– "الآن موعدنا أيها المسكين!"

هَمَسَتْ لنفسها أمام المرآة ثم انفجرتْ في ضحكات عالية قبل أنْ تستقل سيارتها على غير عادتها بمفردها متوجهةً إلى العمدة. عبرت أضواء الأقصر ثم بدأت تستنشق رائحة المحاصيل وهواء الحقول البارد الجاف. كم من الوقت سيستغرقها قبل أن يستسلم... خال لها أنها ستقابل رجلا فظا قضى عمره محاطا بالرجال والنساء التي أخشَنَتْ أعمال الغيط أكفهن... نساء لم تعرف أجسادهنَّ يومًا عبيرَ العطور الفرنسية، ولا يعرفن كيف يوقعن بالرجال أسرى لتلك الأجساد. استفاقت من خواطرها أمام منزل العمدة وقد لمحت أشعة الضوء تنفذ من بين فواصل النوافذ بالطابق الأرضي حيث يلتقي العمدة فيه بزائريه ويتباحث في أمور القرية. طرقت الباب... فتح لها أحد الأطفال الذي كانت عيناه تغالبان النعاس حتى التقطت أنفه تلك الرائحة النفاذة قبل أن يفتح الباب ويفتح معه عينيه عن آخرهما عندما رآها...

- "من أنتِ وماذا تريدين؟"

- "أريد مقابلةَ العمدة."

ملأ عينيه أولًا بما يرى و لم يجبها على التوّ بل انطلق لداخل الدار ثم عاد إليها مسرعًا.

- "تعالي ورائي."

سارتْ خلف الطفل إلى غرفة واسعة تُغرقها الأضواء وبها جهاز تلفاز كبير وجهاز ڤيديو. كان الشيخُ ياسينُ يصدح ووجهه يطل من شاشة التلفاز... وكانت تلك الليلة التي أحياها بالقرنة. لم يكن هناك مقاعد وإنما كنباتٌ خشبيةٌ في جميع جوانب الغرفة تغطيها الكليمات الصعيدية والمساند العربية المزركشة، وعلى إحداها كان يجلس العمدة ويستمتع باسترخائه المتناغم مع ما يشاهده على الشاشة. لم يكن يرتدي عمامَته... فقط جلبابه الأبيض ويمسك بإحدى يديه مِسبحةً أهداها له الشيخ.

ألقتْ عليه السلامَ ثم توجَّهتْ ناحيته يسبقها عطرُها الفرنسيُّ... الأضواءُ البيضاءُ الكثيفةُ زادت من سواد العباءة والشعر المسترسل عليها... مدت يدها مُصافحةً... وقف ليصافحَها... لمحت عيناها شعرَه الأسود الخفيف الذي ينتهي ببعض الشعر الأشيب على الجانبين. اختلست نظرةً خاطفةً إلى عينيه السوداوين العميقتين... وإلى شعرِ صدره الكثيف الذي برز بعضٌ منه من فتحة الجلباب البلديِّ... ويدُه المفلطحةُ التي احتوت كفَّها الصغير فأحسَّت بخشونة كفه.

- "أهلًا وسهلًا يا مدام... هل من خدمةٍ أقدمها لكِ؟"

تلعثمتْ... غاب العقل أو امتنع عن العمل فلم يبعث برسائله كي تنطق بها الشفاة... تبحث في رأسها عن سبب مجيئها... لماذا هي الآن هنا... ولاحظ هو تلعثمها.

– "تفضلي بالجلوس... هل تشربين شايًا أم قهوة؟"

– "أشرب... أشرب قهوة."

غاب لحظات ثم عاد إليها... خَمُلتْ أفكارُها وخَمُلَ جَسَدُها وفقط عيناها متعلِّقتان بذلك الرجل الذي يتحرك أمامها في الغرفة حتى استقر في مواجهتها بعد أنْ أغلق التلفاز.

– "أنا... قطر الندى."

– "أعلم، فأنتِ أشهر امرأةٍ في الأقصر يا مدام."

انزوى العطرُ الفرنسيُّ جانبًا خاضعًا أمام عطرَ الرجولة الذي يعبئ الغرفةَ ويملأ أنفها... توقف سحرُ عينيها عن بَعثَ نوره... توارَتْ شراهةُ المال والنفوذ التي أقدَمَتها إلَى هنا... انسَحَقَتْ شخصية سيدة الأعمال ولم تبقَ في الغرفة سوى امرأةَ تحسُّ بضعفها أمام رجلٍ غزاها بدون أن يقصد، وهي التي لم تقبلْ أنْ تكون امرأةً عندما تكون معَ الرجال... الآن تستمتع بأن تكون امرأةً مسحوقةً مستسلمةً... القطةُ الشرسة تسترخي في وداعة وسكون... تفتِّش عن الكلام فيتلعثم اللسان... تفتش عن الهروب فتضعف قدماها... ما تستطيعه فقط أن تجلس وتنظر لهذا الرابض أمامها يتفحَّصها في هدوء ويبحث في عقله عن السبب الذي أتى بتلك المرأة هنا الآن... ارتشفاً القهوة في صمت... صمتُه يشجي أذنيها... وصمتُها يوشك أنْ يقضيَ على ما تبقى منْ صبره.

- "نعم يا مدام... أنا في انتظار ما ستقولينه."

- "أنا جئتُ أعرض عليك أنْ... أنْ... أنْ تتزوجني!"

ربما يكون هو قد صدَّقَ ما سمع ولكنها لم تصدق أنها قالت ما قالت... لسانٌ آخر حلَّ بها وأنطقها بكلمات غريبة... جاءتْ تعبَثُ بمشاعر الرجل حتى تسلبه إرادته فيتخلى عَن أرضه وعن قضيته... وانتهى بها اللقاء إلى امرأة تعرض الزواج على رجلٍ صعيديٍّ في بيته. لم تهزه الكلماتُ أو يرتجفْ جسده لسماعها... يعرفُ منْ هي وما تفعله في الأقصر وأكثر من هذا فقد علم كيف تخلّى أبو المجد عن أرضه... وإنْ كان الرجل قد أخفى جرحَه لكن أعين الناس التي رأت وآذانهم التي سمعت أطلقت ألسنتَهم فشاعَ الخبر.

- "أعتقد أنكِ أخطأتِ العرضَ يا مدام... أنتِ جئتِ تعرضين صفقةً لشراء الأرض."

إنْ سَقَطَتِ المرأة في هوى رجلٍ، فإنها تسقط بلا حدود وبلا نهاية... وبلا عودةٍ. تملّكت المرأة العاشقةَ من قطر الندى فاندفعَت تلقي أمام فارسها كلَّ أسلحتها.

- "نعم، جئتُ من أجل صفقة... ولكنني الآن غيرتُ رأيي وأعرضُ أنْ تتزوجني... أنا لست حديثةً عهد بالرجال وأعلم أنكَ أنتَ فقط الرجل الذي يمكنني أنْ أعرض عليه ذلك.... إنْ كنتَ لا تريد أنْ تبيعَ أرضَك فلا تبعها. ولتذهبْ تلك الصفقةُ إلى الجحيم! أنا معي أموال كثيرةٌ ولا أطمع في أرضك أو مالِك بل أستطيع أنْ أعطيَك ما تحتاجه من مالٍ، فأنا أريدك أنتَ."

- "أخطأت للمرة الثانية يا مدام... أنا متزوجٌ ولا أرغب في امرأة أخرى... وإنْ حدث ذلك فلنْ أكونَ الرجل الذي تخطبه امرأةٌ... هنا الرجالُ هم من يختارون النساء."

حاوَلتْ أنْ تُلملمَ أشلاءَها المبعثرة في أنحاء الغرفة... قاوَمَتْ رغبتَها في المزيد من الوقتَ معه وفاجأها أنها لم تغضب منه بل أذابتها كلماتُه وأكمَلت انسحاقها الذي تستمتع به.

- "شرفتُ بلقائكِ يا مدام."

وَقَفَتْ في تباطؤ ومدَّتْ يدها تصافحه لا بل تعانق يدَه الغليظة قبل أنْ تخطفَ نظرةً أخيرةً إلى عينيه ثم تنصرف... جلستْ في سيارتها وقتًا لم تعلمْ كم طالَ قبل أنْ تعودَ إليها أسلحتُها التي هربت منها أمام هذا الرجل... في تلك اللحظة كرهتْ ما حَدَثَ وما قالتْ وللمرة الأولى منذ سنوات ذرفتْ دموعًا غزيرةً غزارة الحرمان من الانسحاق بين ذراعي رجُلٍ يُشعرها أنها امرأةٌ ويجمِّل لها ضعفها... ماذا حدث؟ ألم أرَ رجالاً قبل الآن؟ ألم يعرض عليَّ كبارُهم وأثرياؤهم الزواجَ وقد رفضتُهم جميعًا؟ فماذا حدث؟ كانت أقوى منهم جميعًا... بعضُهم احتاجَ مالَها أو علاقاتها أو حتى جسدَها... ولكنها لم تشعر بالحاجة إلى أي منهم... احتاجتْ فقط إلى ذلك الرجل الذي رَأتْه لتوِّها... وكما رفضتْ هي من احتاجوها فقد رفضَها من احتاجته. انطلقتْ بسيارتها وأخذتْ قرارها أنْ تُغادرَ الأقصر غدًا بلا عودة... تخشى أنْ تتخطى كلماتُها لحظةَ ضعفها جدرانَ الغرفة التي شَهدت انكسارَها فيشيع الخبرُ كما شاع بالأمس خبر (أبي المجد) كما لم يبقَ لها ما تعود من أجله... لنْ تقوَ على المجيء هنا ثانيةً وإنْ وثِقتْ أنَّ رجلًا من هذا الطراز لنْ

ينشغلَ ذهنُه بالتباهي بين الرجال بما حدث كما يفعل العاديون منهم. إنْ كان العمدة مختلفًا عمَّن قابلتهم من الرجال، فإنّ أهلَ القرية على ما يبدو مختلفون أيضًا، لنْ يتركوا أرضَهم إلا قسرًا وهذا ليس شأنها. في طريق عودتها تذكرتْ كم عمرها وشَعَرَتْ أنّ الدنيا قد خدعتها في لحظة ظمأها وسَقَتْها شربةَ ماء مالح... كلما عبَّتْ منها تشعر بمزيد من الظمأ... وَسَرَقَتْ سنوات منَ عمرها قضتها تلهث وراء سرابٍ وَسَط الصحراء بحثًا عن قطرةِ مَاءٍ عذب.

***

يحاولُ طايع وحسَّان ومحسوب عبثًا العثورَ على قطر الندى... هواتفُها مغلقةٌ... منزلُها مغلقٌ. اتجهوا لأصدقائهم في مطار الأقصر فعلموا أنها غادرت... معها حقائبٌ كثيرةٌ ومعها أسرتُها... إذن هي مغادرةٌ بلا عودة ومفاجئة لهم... لم تهدهم عقولُهم إلى السبب ولم يهتموا بذلك... المهم الآن استمرار الصفقة... كان محسوب سعيدًا بغيابها.. الآن يمكنهم أن يقوموا بذلك بمفردهم ويحصلوا على الغنيمة بدونها... فقط ما يحتاجونه هو أسماء المستثمرين الراغبين في الشراء... تلك الأسماء التي كانت تحتفظ بها قطر الندى.

– "فلنُقَسِّم العمل إلى مراحل... نبدأ بالحصول على موافقات أصحاب الأراضي وبعد ذلك سنصِل لأسماء الراغبين في الشراء."

– "ما هي اقتراحاتك يا أستاذ محسوب."

– "سأبدأ الحوار مع المحامين، وأنتم تتجهون للقرية وتلتقون بالأهالي... ثم نتقابل جميعًا غدًا مساءً."

اتجه محسوب إلى مكتب الأستاذ فراج المحامي وهو شابٌّ من قرية المريس وتمتلك عائلته قطعةً كبيرةً من الأرض الزراعية.

– "سأكون واضحًا معك... أنت لا تعملِ بالزراعة وأمامكَ فرصةٌ كبرى لتبدأ حياتك بمشروعٍ كبيرٍ لكَ ولأسرتِكَ."

– "هل تقصد بيع الأرض يا أستاذ محسوب؟"

– "نعم."

– "إذن لا تُضيِّع وقتك، فأبي وإخوتي يعملون بالزراعة وأنا صاحب اقتراح جمع التوقيعات لرفض البيع... لا أحدَ سيستطيع اختراقَ إجماعِ أهل القرية."

– "أنتَ تستطيع لو اتفقنا."

– "لن نتفقَ، لا أنا ولا عائلتي بحاجة للمال... وبالنسبة لي فهي مسألة مبدأ... أنا مقتنعٌ بالحفاظ على الأراضي الزراعية فهي من مقدرات البلد... كما أنها تحفظ لنا ولأبنائنا هويتنا... لا أريد لهم أن يصبحوا مُسوخًا... أنصحك أنْ توفرَ وقتكَ ومجهودك."

انصرف محسوب مُحمَّلًا بخيبة الأمل... تذكَّر مغادرةَ قطر الندى المفاجئة... لابد أنها قد حاولتْ وعرفتْ أنه لا فائدة، فهي أبدًا لن تترك صفقةً كهذه إنْ كان هناك بادرة أملٍ... لقد فرغ الكأس ولم يبقَ هناك ما يستحقُّ البقاء من أجله في الأقصر... الآن يمكن أنْ يبدأ حياته في مكانٍ جديد ويستقيل من تلك الوظيفة. لم يكد يصل لمنزله حتى كان قد غيَّر كلَّ أفكارِه فمازال يشتهي عودته من عمله وقد انتفختْ جيوبُه بالعملات

الورقية التي تُترَك له في دُرج مكتبه عند إنهاء الأوراق... يتذكّر وجهَ نصر مرؤوسه في المكتب وكيف سيفرح إذا غادر هو الأقصر لأنه سيأخذ كل الرزق لنفسه... يكاد يرى ابتسامته العريضة عند انصرافه آخر اليوم وقد امتلأ درجه بالمال... لا لن أستقيل... لن أتركه يهنأ بهذا بمفرده... تذكر وجه نصر و لم يتذكر أو يلتفت لما يملكه من ملايين في عدد من المصارف. يتملّكه هاجسٌ دائمٌ أنَّ زوجته وأبناءه سوف يحرمونَه من كلّ تلك الملايين فهي باسمهم... وأنه يومًا سيستيقظ صباحًا ولا يجدهم... فماذا يفعل ساعتها؟ لابد أنْ يحتفظ بتلك الوظيفة... ذلك الهاجس يحرمه من النوم العميق... ينصت لأي حوار بين زوجته وأبنائه... إنْ تحدثوا بمفردهم وهو في غرفته يحسب أنها المؤامرة المنتظرة... يتحسس فراشَه طوال الليل ليطمئن أنها بجانبه... يهرع كل صباح إلى غُرف المنزلَ ولا يَهدأ إلا بعد أن يرى الجميع منهمكين في نشاطهم الحياتي اليومي.

لم يكن طايع أو حسَّانٍ أسعدَ حظًّا من الأستاذ محسوب... عقول وأبواب أرباب العائلات أغلقت دونهم و لم يجدا شخصًا فردًا يقبل البيع... تساوى في ذلك منَ يملك قيراطا ومن تعدَّت ملكيتُه عشرات الأفدنة فانكفأ كل منهما على نفسه... طايع يحصر ما حصل عليه في العام الأخير ويتهيأ للانطلاق في عالم الأباطرة الجدد ويقترب حلمه من التحقيق عندما طرق بابَه أحدُهم طالبًا مُصاهَرَته واشترى سيارةً جديدةً مثل كبار رجال الأعمال الأقصريين أما حسَّان فقد انتهى به الحال وحيدًا بعد أن اختفى همام منذ أنْ سَرق أمه... يقولون أنه غادر الأقصر إلى القاهرة وبعضهم يقول أنه غادر البلاد إلى أوروبا. ذاب حسَّان في مجتمع آلان ودينيس وانقطعت صلاتُه بأهل القرنة منذ أنْ تبرَّأ منه الشيخ عزب علنًا في المسجد. وبدا عمدَةُ المريس بين أهله كالقائد بين جنوده.

ذاعَ خبرُه خارج الأقصر وجاء إليه المريدون والمؤيدون من كل حدبٍ وصوب... منظماتٌ مصريةٌ مدنية... شخصياتٌ لها ثقلها الوطني... بعض الصحف المحلية والمستقلة قررتْ أنْ تُدافعَ عنه وعن مئات الأفدنة الخضراء المهدَّدة بالإبادة وبعضهم قرَّر أنْ يدافع عن الأرض بأجسادهم... وترقب الجميع لحظة الاختبار... من سيُكتَبُ له الحياة... حقٌّ الوطن في حماية قِطعَة أرضٍ تُنتِج له الطعام أم زَحْفُ النمل الأبيض.

# البعث الأخير

لم تعُدْ مروة من القاهرة كما سافرتْ إليها... غادرتْ يرافقها الألم من رفض والدها زواجَها وتكسَّرتْ في نفسها معان كثيرة مما سمعته منه... إنه لا يمانع في تزويجها من أي شخص حتى لَو كان يرافق امرأةً أخرى ما دام يملك المال. غادرتْ إلى عمَّتها بأحزانها ثم عادتْ بوجه متورِّد وعيون باسمة... شيء جللٌ قد حدث هناك لم يلحظه أحدٌ سوىَ أمِّها... حَدَثٌ تلحظُه أمُّ السعد وتحسُّه ولا تعرفه. تراقب كلماتها القليلة وحركتَها وسكونَها... ترتاب عندما تشاهد قفزات ابنتها الواسعة وهي تصعد أو تهبط درجات السلم الداخلي للمنزل... تَربُّعَها أمام الفرن يوم الخبيز دون حَذَرِ العذارى المعتاد... قامتَها التي ازدادت أنوثةً ودورانًا... صمتَها حين يُذكَر اسمُ طيب في المنزل... خلوتَها الدائمة... الطمأنينةَ التي عادتْ معها وتكسو وجهَها. ناوَشَتها مرارًا عن أيام إقامتها عند عمتها وسألتْها عمَّن رأتْ هناك وماذا فعلتِ وَلم تحصل منهَا على إجابة أكثر من ابتسامة هادئة لم تُخمد نيران الشك التي تُطبق على صدر الأمِّ حتى كان اليومُ الذي عاد فيه طايع متهللا.. على غير عادته عاد مبكرا

وأخذ يداعب أمَّ السعد...

- "أدركتُ اليوم فقط لما أسموكِ أمَّ السعد."

- "ما الجديد اليوم؟"

- "مروة هي السعد وأنتِ أمها. أين هي؟"

- "كعادتها منذ عودتها من مصر، دائمًا بمفردها في غرفتها."

- "أخبريها إني أريد أنْ أحادثَها في أمرٍ مهمٍّ."

بعد أنْ انفضَّ جمعُه مع قطر الندى وحسَّان، قرر حسَّان أنْ يبدأ حياةً جديدةً ينتقل خلالها إلى صفوة رجال المال والأعمال في الأقصر... واليوم يحمل معه ما اعتبره الخبرَ الأجمل لعائلته... أحد أغنياء الأقصر يرغب في مصاهرته... سيتحقق أخيرًا ما أسماه زواجَ عائلة بعائلة وزواجَ المال بالمال... أعظمُ ختام لصفقاته... الوثبة الكبرى في حياته.. رتّب مع الرجل كلَّ تفاصيل الزّواج وما بعده ولم يبقَ سوى موافقة العروس.

- "ما الأمر يا أبي؟"

- "تعالي يا أجمل بنات القرنة... ستعرفين الآن أني كنتُ اختار ما يليق بك وبنا... رجلٌ تتمناه كلُّ بنات الأقصر... المال والشباب والأصل... لقد وافقتُ ودعوتُه لقراءة الفاتحة غدًا في المنزل."

تغيَّر وجهُها وشحُبَ لونُه فجأةً... تيبَّستْ قدماها وارتعدَ جسدُها... لقد جدَّ الجدُّ وحانتْ لحظة المواجهة التي لا مفرَّ منها... عليها أنْ تواجه قدرَها المحتوم بمفردها... تلمح وجهَ أبيها الفَرِح... تُرى كيف سيبدو

بعدْ أنْ تُطلق من فمها الكلمات الثقيلة؟ منذ أسابيع قليلة شهدت نفسُ الغرفة مواَجهتَها الأولى مع أبيَها وصفْعَها وركلها فماذا تُخفي هذه الجدران اللعينة لها اليوم؟ تحاول في عناء اختيارَ كلماتٍ تخفّف ما ستلقيه في وجه أبيها وأمها وتشعر أنها قد فقدت النطق...

– "لكن هذا مستحيلٌ يا أبي... لنْ أتزوَّجَ هذا الرجل."

– "لماذا يا بنتي؟ أنتِ حتى لا تعرفينه و لم ترَيه قبل الآن."

– "لا أستطيع أنْ أتزوجه هو أو أي رجلٍ آخر."

يحاول طايع أنْ يروِّضَ غضبَه المكتوم... يقف ويقترب منها... يُحيط ذراعُه بكتفيها في حُنوِّ الأبوة علّه يُلغي من ذاكرتها صفعاته التي لم يزل صداها تُردده الجدرانُ أو تدرك أن قسوتَه كانت مشروعةً بحق خوف الأب على ابنته الوحيدة.

– "لماذا لا تستطيعين الزواج؟"

تنظر لعينيه وتجتاحها مشاعرُ العتابِ الرقيق والشفقة عليه من كلماتها الآتية التي يحاول لسانُها جاهدًا الفرارَ منها. تتمنىَ لو أنه قد أحاطها بتلك الذراع قبل اليوم أو أنه قد تخلى عن جفائه الظاهر معها قبل ذلك... ليتُك لم تدفعني لأنْ أفعلَ ما فعلتُ.

– "لأني... متزوجة."

تتجبَّرُ الكلماتُ أحيانًا وتَصبح أسلحةً ويفقد الحرفُ حقيقتَه وأنه صوتٌ لا يُرى ويغدو خنجرًا يعرف وجهَته إلى القلب مباشرةً وتغدو للكلمات قوةٌ خفيةٌ للقتل تفوق طلقات الرصاص. أطلقتْ رصاصَها

في وجه أبيها وأمها ثم سقط جسدُها فوق أحد المقاعد بينما تهاوى جسد الأم على الأرض مُطلقةً صرخةً لم تكتمل بعد أن كتمتها بيدها... وأخذت تضرب رأسها بكلتا يديها... لقد صَدَقت شكوكُها... لم تعد ابنتُها من القاهرة كما غادرتْ. أما طايع فلم ينطق... لم يصدِّق كلمات ابنته... كيف وأين ومتى ومَن؟ هل تخدعه حتى لا تتزوج هذا الرجلَ؟ فهي لا تخرج من البيت منذ عودتها... عودتها؟ القاهرة... أختُه والودُّ المفقودُ منذ سنوات شبابهما. كلمَاتٌ مبعثرةٌ تومضُ في عقله وتختفي. هل قرَّرتْ أختُه أنْ تنتقمَ منه في ابنته؟ ألم تنسَ بعد كل هذه السنوات؟ يطارِد الماضي أصحابَه دائمًا ويغدو النسيانُ أكذوبةً إذا ما كان هذا الماضي مؤلمًا وقد كانِ ماضيه مع أخته بطعم العَلْقَم الذي تأباه أفواه الأطفال وإنْ كان مختلطًا بثدي الأم ولبنها... وكم كان هذا الماضي عصيًّا لأخته على البَلْع... ظل عالقًا بجوفها لم تذيبه السنون و لم تنسَ يومًا قسوتَه معها واتفاقَه مع أبيه على إرغامها على الزواج من زكيبة مال... كانت تكره رائحة مخدِعها عندما تتمدد تلك الزكيبةُ بجوارها... ثم اغتصاب أرضها عندما علِم أنها ستغادر القرنة مع زوجها. لابد أنها فعلتْ مع مروة ما لم تستطيعه لنفسها... أفكارٌ بلسع أشواك السَّنط تثقبُ رأسَه وجسدَه ويمزقه صوتُ الصمت والأنفاسُ المختنقة في الغرفة. استحال الصمتُ صفعاتٍ من كفه الغليظة على وجه ابنته وانغراسًا لأصابعه في شعرها الأسود وجرجرةً لها كالذبيحة على أرض الغرفة... وركلَ قدميه لكل ما وصلتا إليه من تفاصيل جسدها المرتعد المستسلم بلا مقاومة ولا حتى بالصراخ أو محاولة الإفلات... فقط الأنفاسُ اللاَهثة تُعلن عنَ استمرار الحياة في هذا الجسد المتكور على أرضية الغرفة. الأقدامُ التي تركل والأكفُّ التي تصفع والأصابعُ التي توشك أنْ تتمزّق من التفاف خُصلات الشعر الحريرية حولها... كلها تعبَتْ وملَّتْ الركلَ والصفعَ

والشدّ وربما يكون قد أجهدها استسلامُ مَن تتلقى... ومَن تتلقى لم تتعب أو تضجر فهي تحسب كلّ ذلك ثمنًا بخسًا للحظات السعادة التي نعمَتْ بها بين ذراعيَ مَن عشقَت ولجرأة اتخاذ قرار علمتْ مُسبقًا أنّ الموتَ هو نهايته... رضيَتْ واختارتْ موتًا بطعم الحياة على حياة الأموات. تُشفق على أبيها مرةً أخرى مما هو فيه وتتمنى ألا تموت بين يديه فيشاركها دفعَ الثمن. يتوقف فجأة... يجلس بجانب أمها... ثم يقوم يُكمل الركلَ والصفعَ.

- "مَن هو؟"

- "طيب."

- "أين؟"

- "في القاهرة."

- "هل عَلِمتْ عمتك؟"

- "نعم."

- "ألم تحاول أنْ تمنعكِ؟"

- "لا... فقد قابلَتْ طيب وتحدثتْ معه... أخبرَتْني بما فعلتَه معها وأرادتْ هي أنْ تساعدني وقررتُ أنا ألا أكون مثلها."

بعد أنْ عرف ما أراد، أشار إلى زوجته أن تأخذها إلى الطابق العلوي، وألا تخرج إحداهما من الدار قبل أن يأذن لهما.

إنَّ قرارَ العشق في الصعيد هو قرارٌ بالموت... يطرد الخدرُ من أنوف العاشقين رائحةَ الدم فلا يستشعرون النهايةَ القريبة... في القاهرة تحرَّرت العاشقةُ الجنوبيةُ من قيود الخوف والقهر ودفعتْ طيب دفعًا للقفز معها فوق حواجز النار... وفي لحظة العشق تتقزَّم إلى درجة التلاشي من رأس الرجل كل قيمة قضى عمرَه وفيًا لها... حاول طيب أنْ يذكرها بالقرنة وأهلها وأهله فذكَّرته بما سمعه في منزلها ومازال صداه يتردد في أذنيه... حدَّثها عن خوفه عليها من لحظة المواجهة بمفردها فحدَّثته عن حياة الموت التي تنتظرها طوال عمرها القادم إنْ لم يتمردا الآن... ضَعُفَ وأجابها وأجابَ نفسَه لما يطلبان... وافقتهما العمَّة لا انتقامًا كما اعتقد طايع وإنما رأتْ فيهما استدراكًا لأخطاء الماضي... اكتفى العاشقان من العمر بلحظات التحليق فوق المحظور... اختصرا الحياة في عدة أيامٍ وقد حسباها تستحق الموتَ ثمنًا لها.

يخلو طايع بنفسه... لا مفر إنها النهاية... يقفز إرثُ القبيلة إلى رأسه... ثوبُ القبيلة لطخته قصة العشق والتمرد... كيف سينتشي بين أفرادها وكيف للرأس أنْ ترتفعَ بعد اليوم؟ بما سيخبر أهل القرنة وقد كسرته ابنته؟ لن يتطهَّرَ الجلباب إلا باللون الأحمر... بدماء العاشقَين. هناك بجانب قدس أقداس العائلة، بجانب كراسة الجرد مازالت بندقيتُه راقدةً تنتظر يومَ اختبارها فهو لم يختبرها قبل ذلك إلا في الأفراح... الآن جاء وقت التصويب على سويداء القلب... تضيق الدنيا ولا يتعدَّ اتساعها قطرَ ماسورة البندقية... ولكن ماذا بعد البندقية؟ النهاية... نهاية المال والأحلام والحياة. لمن سيترك ما قضى العمر في جمعه؟ لم يمت الساحرُ بداخله... يزيِّن له أنْ يحبسَ القبيلةَ وثوبَها وإرثَها بذلك

الصندوق الذي يحتوي كراسة الجرد... لنْ أطلق الرصاصةَ على رأسي... لن أكون ككل أفراد القبيلة... لابد من حلَ آخر مختلف.

***

مع إشراقة صباح اليوم التالي كان طايع ينتظر طيب أمام مقر عمله. يقترب طيب ويلمح سيارة طايع... يتوجه إليه بتوجس من ينتظر قدرَه المحتوم... تلتقي العيون فتتحدث بما قد كان بالأمس البعيد في العاصمة وبما هو قادمٌ قد يستغرق لحظةً يتيمةً تُنهي حوارًا قبل أن يبدأ.

– "أنت تعلم بالطبع لماذا أنتظرُكَ وتتوقع لما جئتُ من أجله... طلقةٌ في رأسِكَ وأخرى في رأسها هو القانون الذي نعرفه جميعًا."

– "طرقتُ بابَك وأنا غير طامع في مالك... فأنت تعرفني... أردتُها هي فقط، ولكنكَ أغلقت أمامنا الطريق."

– "وما هو رأي الشيخ عزب حكيم الغرب وإمام المسجد؟"

– "الشيخ عزب لا يعلم شيئًا... وهو لن يقبل زواج ابنتك رغمًا عنك، فالقرار قراري وأنا راضٍ بدفع ثمنه."

– "لن أقتلك يا طيب، فلا أنتَ ولا هي تساويان طلقة الرصاص... أنتظرُ أنْ تزورني مع الشيخ عزب وتكرر طلبك ثانيةً وسأوافق... بعد الزواج الرسمي لا أريد أنْ تخطو قدم أي منكما عتبة داري."

قبل أنْ يستفيقَ طيب من ذهوله انطلق طايع بسيارته... تهلل وجه طيب و لم يصدق ما سمعه... كيف يتغير الرجل لهذه الدرجة؟ ربما كما

تغير طيب نفسه وفي لحظة ضعف لا تتكرر في حياة الرجل تناسى إرثَ الصعيد. لم يدرك أنَّ ما عَرضه طَايع لم يكن من أجله أو من أجل مرِوة وإنما من أجل نفسه... في لحظة اختبارِ واختيارِ قد اختار أنْ يكملَ ما بدأه ويستكملِ مشروعه الكبير... أنْ تكون رَأسُه برأس كبار رجال المال... لن يوقفه حدثٌ عارض... أغراه الساحر الساكن داخله أنه أكبر من أن يطلق رصاصةً ستقتل عائلته وسيرتها قبل أن تقتل طيب ومروة. انتصر الساحر وانتصر المال على رجل القبيلة. في الساعات التالية عاد إلى طيب واتفق معه على كل التفاصيل... لقاءٌ مع الشيخ عزب مساء... دعوةُ الكبار لحفل الخطوبة ثم السفر للقاهرة لإتمام الزفاف. كانت دهشة الشيخ عزب بالغةً من الموافقة على الزواج والتعجل لإتمامه ولم يجد طايع صعوبةً في إقناع الشيخ أنه قد ارتأى أن طيب سيكون نعم الزوج لابنته.

***

أعطى عمدة المريس الشاب قُبلةَ الحياة للجسد المترهِّل الممدد على ضفة النيل الغربية... تناقلتْ أوراقُ الشجر في الحقول كلماته عن اللون الأخضر... والأطفال يرددون ما قاله في اجتماع مركز الشباب... أصبح لهم بطلًا قادمًا من طين الأرض يشبه آباءهم فتغنوا باسمه وتغنوا بالأرض... استفاقَ مثقفوا القرنة على صدمة المواجهة بين عمدة المريس ومَن أرادوا أنْ يغتالوا أرضَه وأرضَ أهله... أدركوا الآن ما فقدوا في سنوات قليلة... استيقظ النائمون فجأةً فرأوا جسدًا غريبًا مغروسًا في أرضهمَ... جسدًا يتمدد فيِ عقول أطفالهم... وكتاتيب أغلقت كانت تنقِش في الصِّغر ما يَحفَظ في الكِبَر... وامرأةٌ سُرِقت

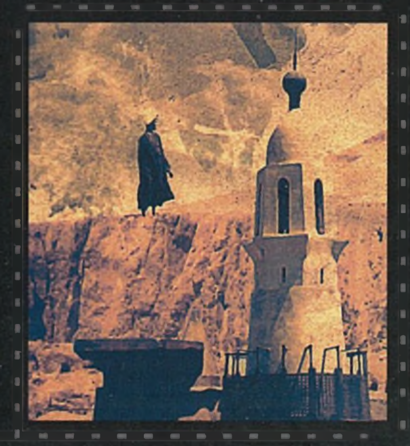
أرضُها الملفوفة بحبلٍ من الصوف حول رقبتها... وغزاةٌ كانوا يتغنون بشمس الأقصر وحضارتها ثم ألقوا الأقنعةَ جانبًا واستطالتْ ألسنتُهم وأظافرُهم حرابًا تنشبُ في جسد الأقصر... وشبابًا خُطفوا من شوارعها ومصانعِ الألبستر في الغرب ومُسخوا أشباحًا بلا هوية... أدركوا أنّ الخسارةَ فادحةٌ... لكن الأملَ منقوشٌ في قلوب صغارٍ مازالوا يرتدون مريولَ المدرسة ويسيرون كل صباحٍ متشابكي الأيديّ يتنفسون هواء الحقول... يستمعون لآيات القرآنِ في طابور الصباح ويقفون انتباهًا وتهتف ألسنتُهم بنشيد الأرض والعِرض والوطن... ويشترون حلوى الجلاَب المصنوعة من سكر القصبِ... هؤلاء لم يتيهوا بعد. بعد أن فرح بعرس ابنه المفاجئ، يوم الشيخ عزب الناسَ في صلاة الجمعة ويوجه نداءَه الأخير إلى من لايزال الدم الجنوبي يفور في عروقه أنْ يطفئوا الحريقَ ويدركوا ما تبقى من نَبت أشجار الأثل، فيلبيٌّ النداءَ مثقفوا القرنة. تُفتح أبوابُ الدواوين ويُنفَض الغبارُ المتراكمِ على الأكلمة الصعيدية... كُتّابٌ في كل ديوان... وشابٌّ يجمع الأطفالَ حوله في دائرة... يعلمهم القرآنَ وكُتبَ التاريخ وقصصَ الأنبياء وقصص الشاطر حسنٍ وأبي زيد الهلالي. لجنةٌ دائمةٌ للحفاظ على الأرض تبحث في طلبات البيع والشراء... مَن أراد بَيع أرضه فليبيعها ولكنٍ لأحد أهل القرنة... لا للمزيد من الغزو الأبيض... تتبرَّأ القرنة من المسوخ والشيخ عزب يعلن في المسجد بعد صلاة العصر قائمةً سوداء بكل من باعَ نفسه لإمرأة عجوز أو دردوم وافتتح المشاريع بما اعتبره الشيخ من المال الحرام. نبذهم أهلُ القرنة... إنْ أرادوا البقاء فليذوبوا مع من اختاروا ولينسوا أنهم كانوا يومًا يلعبون في غيطان الغرب وتغوص أقدامهم في الطين. لم يكن ما يحدث في القرنة صحوةَ الموت بل كان بعثًا جديدًا.

# الفهرس


| م | الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|---|
| ١ | مقدمة | ٥ |
| ٢ | الدردوم ومَرّة العيش... | ٧ |
| ٣ | المال والعشق | ٢٧ |
| ٤ | الصعود | ٤٣ |
| ٥ | الأميرة قطر الندى | ٥١ |
| ٦ | النمل الأبيض | ٦١ |
| ٧ | القبيلة | ٧٣ |
| ٨ | الباشا القِبطيُّ والدراويش | ٨٥ |
| ٩ | اللص | ١٠١ |
| ١٠ | المريس والضبعية | ١٢٣ |
| ١١ | البعث الأخير | ١٤٥ |
| ١٢ | الفهرس | ١٥٥ |

# مدينة لا تضحك

. تمَّ كل شيءٍ وغضَّ الجميعِ البصر، مَنْ علم ومَنْ لم يعلم. أعيد التيار الكهربائي ليفضحَ ضوءُه الجميعَ... الجالسين خارج منازلهم يشربون الشاي ويتصنعون ضَعفَ السمع وعدمَ الإبصار ليلاً... والعائدين بسياراتهم من النقطة صفر بعد أن راقبوا وأمَّنوا وحصَّنوا أنفسهم من ليل الشتاء بدفء الثمن.. والخوارجَ الذين تعذَّروا عن خوض المعركة خوفًا من البرد... ورضوانَ الذي ترك باب الجنة مفتوحًا على مصراعيه وغطَّ في نوم عميق.






الغلاف للفنان/عبد الرحمن الصواف